

الفصل الأول

الشرق والغرب

١ - في العصور الوسطى

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . هذه الكلمة للشاعر الإنجليزي « كبلنج » ترد على كل لسان ، ويجرى بها كل قلم كلما تناول الحديث أمور الشرق والغرب . ومن الكتاب والمحدثين من يؤيدها ، ومنهم من ينقضها . . ومنهم من يسلم بأنها تنطوي على جانب غير قليل من الحق ، ثم يحاول أن يجد الوسيلة لالتقاء الشرق والغرب والميدان الذي يلتقيان فيه . ولقد أتيح لى أن أقف من قبل عند هذه الكلمة ، وأن أحاول إيجاد الصلة بين الشرق والغرب ، كأنما كانت هذه الصلة غير موجودة من قبل .

وإننى اليوم لأبتسم إذ أذكر هذه المحاولة من جانبي ، وأبتسم حين أقرأ كلمة « كبلنج » . فالشرق شرق والغرب غرب هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ أبعد حقب التاريخ ، وهما يلتقيان دائماً وسيلتقيان ما بقى في العالم شرق وغرب . والنضال مستمر بينهما لم تهدأ قط يوماً ثائرته . وما عسى يكون التلاقى إذا لم يكن في نضال . وهل الحياة في رأى العلماء من معاصري « كبلنج » وأصدقائه غير النضال .

كذلك يقول « داروين » في نظريته عن النضال للحياة (Struggle For Life) ، وكذلك يقول : « شوبنهاور » عند حديثه عن فلسفة الحب ، وأنه ليس هذا المعنى الخيالى الجميل الذى يتغنى به الكتاب والشعراء ، وإنما هو الجهاد العنيف لتخليد النوع وتحسينه فمن عجب أن يحاول الكتاب أو المفكرون خلق صلة بين الغرب والشرق وهذه الصلة موجودة منذ القدم ، وهذا الالتقاء بينهما هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قسماً بعد قس من ضياء النور والهدى والعلم . وفى هدى هذا الضياء سار العالم نحو الكمال خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف .

وهذا الالتقاء بين الشرق والغرب لقاء نضال ينتهى مرة إلى غلب ، وأخرى إلى هدنة ، وثالثة إلى صلح ، ورابعة إلى تعاهد وتحالف تجازى أو حربى هو بعينه الالتقاء بين دول الغرب نفسها ، لقاء ينتهى لواحدة أو لأخرى من هذه الغايات .

وكما أن دول الغرب قد تحالفت فى حقب مختلفة كذلك لتناوى دول الشرق . كما تحالفت كذلك دول الشرق فى حقب مختلفة لتناوى دول الغرب ، فقد حدث فى غير هذه وتلك من الحقب أن تحالفت دول من الشرق وأخرى من الغرب لتناوى غيرها من دول الشرق أو الغرب ، أو من دول منهما متحالفة هى الأخرى .

على أن التقاء الشرق والغرب لقاء نضال وتطاحن كان أكثر اتصالاً على التاريخ من تفاهم الشرق والغرب ، أو من تفاهم بعض الدول من الشرق ومن الغرب . ولستأ نريد أن نفصل ذلك هنا فتفصيله ليس مقصد

هذا الكتاب . ولكننا جميعاً نذكر كيف كان الغزو متصلاً بين مصر
 الفراعنة واليونان ، وكيف كان الغزو متصلاً بعد ذلك حين استولى
 « إسكندر الأكبر » على مصر حوالى سنة ثلثمائة قبل الميلاد ، وكيف
 غزت مصر اليونان من بعد ذلك فى عهد البطالمة أنفسهم ، ثم كيف غزا
 اليونان مصر تحت حكم « يوليوس قيصر » ، وكيف انتهت دولة البطالمة
 المصرية بانتحار « كليوباترة » . هذا المد والجزر بين مصر واليونان
 وروما قد حدث مثله بين فينيقيا ومصر ، وبين فينيقيا واليونان وروما .
 وفى هذه العصور كانت الوثنية منشورة اللواء فى هذه النواحي المعروفة
 من عالم يومئذ فى صور إيمانها وطقوس عباداتها المتباينة المختلفة . ولم يغير
 ظهور « موسى » وبني إسرائيل من هذا الوضع فى مد العالم يومئذ وجزره
 تغييراً يذكر . فقد خضع اليهود فى ذلك العصر لحكم روما خضوع
 إذعان وسكينة قانعين بأرض المعاد والمقام حول قدس « سليمان » وما جاوره من
 الأماكن المقدسة ، فلما ظهرت المسيحية فى جوار قدس سليمان ، وفى
 أرض المعاد ، كان طبيعياً أن يدس اليهود لها عند الحكام الرومانيين وأن
 يحاولوا إظهارها فى مظهر الثورة على سلطان الدولة . لكن المسيحية لقيت
 من نفوس الطوائف التى كانت مضطهدة حين ظهورها - وما أكثر ما
 كانت - إقبالا عليها أن كانت تعدها النعمة فى السماء جزاء ما لقيت على
 الأرض من شر وعنت وبقيت المسيحية حظاً موقوفاً على هذه الطوائف
 المضطهدة أجيالا حتى أتاحت الأقدار لها أن تنفذ إلى قلب حاكم رقيق
 العاطفة محب للضعفاء ، وانتقلت المسيحية من روما إلى البلاد التى
 كانت خاضعة لحكمها . انتقلت إلى مصر والشام واليونان . ثم امتدت من
 مصر إلى الحبشة وإلى اليمن . ثم جعلت تغزو فى بطاء وسكينة بعض

نواحي العراق في الشرق . وبعض نواحي أوروبا البربرية إذ ذاك في الغرب . وفي أواخر القرن السادس المسيحي ظهرت الدعوة الإسلامية . ظهرت أول أمرها ضعيفة متواضعة برسولها النبي الأمي وبالعدد القليل الذي اتبعه ، قوية بالدعوة إلى التوحيد وإلى الحرية وإلى الرحمة وإلى الإخاء ، دعوة تناولت القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والمترف والمحروم . ظهرت هذه الدعوة أول أمرها ضعيفة متواضعة لم يشعر بها أحد ولم يدع صاحبها إلى اتباعه غير عشيرته الأقربين . لكنها كانت دعوة إلى المثل الأعلى في الإيمان وفي الخلق وفي التضحية وفي تمحي الموت في سبيل الحق والحرية والخير والفضل والعدل ، لذلك استجاب إليها كثيرون من أهل مكة طيبة نفوسهم بما تلقى في سبيل إيمانها من اضطهاد وتعذيب . وتعاقت السنون والمؤمنون بالدعوة يزدادون عدداً ويزدادون في إيمانهم قوة ، وللعذاب في سبيل هذا الإيمان حباً . ثم عرض « محمد » نفسه على القبائل أثناء حجها الكعبة فاستهانت في البداية بأمره . لكن كلماته انطبعت في نفوس الكثيرين من أبنائها . وعرفت بلاد العرب أمر « محمد » وأصحابه ، ثم اشتد ساعده ببيعة العقبة الكبرى ، وبالهجرة إلى المدينة ، وبانتصاره على قريش وبفتح مكة وبدخول العرب في دين الله أفواجاً . وأرسل « محمد » رسله إلى الملوك والأمراء من حوله يدعوهم إلى الإسلام ويعدهم سعادة الدارين .

ولقد أحاطت بمحمد حين دعوته بيئة معادية أشد العداوة . أحاط به العرب الوثنيون الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنبثون في أنحاء شبه الجزيرة وفي جنوب الشام ، والمجوس في فارس والنصارى في اليمن من الجنوب ، وفي الإمبراطورية الرومانية والبلاد الخاضعة لحكمها من

الشيال والغرب . لكن هذه الدعوة الجديدة لم تلبث أن ظفرت بهذه القوى جميعاً ؛ ففي أقل من مائة سنة عقب وفاة النبي امتد سلطان الإسلام إلى الشام وإلى مصر وإلى شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسي ، وانتقل من مراكش إلى إسبانيا كما امتد في قلب آسيا حتى أواسطها . وفي فترات متعاقبة متقاربة بعد ذلك امتد إلى الهند وإلى جزر الهند الشرقية وتغلغل في أفريقيا وفي آسيا . وبذلك قامت في العالم إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تنقلت عاصمتها من مكة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة وأحييت في العالم حضارة جديدة انكشبت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ووقفت إزاءها المسيحية خائفة ترقب . وعن خوف المسيحية وعن ترقبها نشأت الحروب الصليبية متطلعة أنظار أهلها جميعاً إلى بيت المقدس ، إلى جواره ولد « المسيح » وفيه قام المسجد الأقصى وعلقت صخرة « سليمان » . وظلت هذه الحروب قائمة تثور حيناً وتهدأ حيناً ولا تصل المسيحية منها إلى شيء مما تبغى حتى ظنت في ختام الحرب الأخيرة الكبرى سنة ١٩١٨ أنها بلغت غايتها بوضع إنجلترا وحلفائها أيديهم على بيت المقدس وهتاف « الفلد مارشال للنبي » قائد قوات الحلفاء في الشرق الأدنى يومئذ قائلاً : (اليوم انتهت الحرب الصليبية) .

برغم هذه الخصومة الأصلية في النفوس والتي بدت من جانب أوروبا منذ الحروب الصليبية الأولى فقد أبدى الشرق في هذه القرون جميعاً من التسامح الديني ما يجدر بالمؤرخ المنصف تسجيله وتقديره . والأمم كذلك بنوع خاص حين مجد الشرق وازدهار الحضارة الإسلامية في ربوعه . أي منذ فجر الإسلام إلى ما بعد فتح الأتراك القسطنطينية وتوغلهم في أوروبا إلى أسوار فيينا . ففي تسعة قرون متوالية كانت النعرة الصليبية

تجمع الجيوش في ممالك أوروبا المختلفة وتتجه بها تحت إمرة ملك إنجلترا أو ملك فرنسا أو غيرها من ملوك النصارية قاصدة غزو المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم يكن ذلك لأن الدول الإسلامية كانت تصد المسيحيين عن أداء الطقوس الدينية في بيت المقدس . فقد كانت هذه الطقوس تؤدي . وكان المسيحيون ، سواء منهم من استظل بلواء الدولة الإسلامية ومن قدم من بلاد أجنبية ، يقومون بها في أمن وسكينة لا يكدرها مكدر . وإنما كان ذلك تعصباً للمسيحية حرصاً من أهلها على الأخذ بالتأثر . وكان المسلمون في مختلف العصور يكتفون بصد الغزوات الصليبية دون أن يهبوا لغزو أوروبا المسيحية انتقاماً منها عن اعتدائها على ديارهم ، بل كان هؤلاء المسلمون يحسنون معاملة الغزاة المسيحيين الذين يقعون في أسرهم حتى سجل المؤرخون الأوروبيون ذلك لهم بعداد الإعجاب والفخر . ولم يغير تكرار الغارات من نفس المسلمين ولا هو أغراهم بالانتقام من « لويس التاسع » حين أخذه أسيراً بالمنصورة ، ولا هو أغراهم « برتشارد قلب الأسد » حين كان في سلطان « صلاح الدين الأيوبي » ويده . وليس لمؤرخ منصف إلا أن يسجل للمسلمين بالإعجاب والفخر دفاعهم عن ديارهم التي أصبحت إسلامية ودخلت في حوزة الإسلام منذ عصوره الأولى ، وأن يشهد بأنهم كانوا على حق فيه ، بينما كان الصليبيون هم التأثيرين المثبرين . وبينما كان التعصب الديني هو الحافز لهم على العدوان عدواناً لم يكتب لهم التوفيق فيه خلال خمسة عشر قرناً كاملة .

ما سبب هذا الاندفاع من جانب أوروبا المسيحية ؟ وكيف بقي المسلمون أيام مجدهم يكتفون من هذا الاندفاع بصدده دون مواجهته بغزو مثله ؟ أما

اندفاع أوروبا المسيحية فمصدره عاملان : أولهما أن الإسلام أغار في أول أمره على بلاد مسيحية كانت روما وكانت القسطنطينية من بعد ترجو أن تتخذها قواعد لازدياد انتشار المسيحية ، وكانت الشام ومصر أهم هذه البلاد ، وثانيهما أن الإسلام أقام من البلاد التي فتحها ونشر علمه فيها سداً بفصل بين أوروبا المسيحية وبقية العالم يومئذ ، والذي لم يكن يزيد على أفريقية وآسيا وأوروبا ، فأمرى كما لما نكن قد اكتشف . وقد بدأ الإسلام يصد تيار المسيحية في اللحظة التي توسعتها فاتحة النصر وبداية الوثبة إلى قلب آسيا وأفريقية ، فقد كانت الحرب السجال قائمة بين فارس المجوسية وبيزنطة المسيحية ، وكان لفارس فيها الغلب أكثر الأمر ، فلما بدأ الحظ يتغير في هذه الحرب لبيتسم « لهرقل » عاهل المسيحية فينتصر على المجوسية ويمكته من استرداد الصليب الأعظم من فارس وإعادةه إلى بيت المقدس في حفل عظيم ، أوفى فيه بنذره أن يسير من عاصمة ملكه إلى المسجد الأقصى على قدميه يحيط به أتباعه وجنده ويتقدمهم هذا الصليب الأعظم رمزاً مقدساً للإيمان والنصر . وإنه في هذه اللحظة وفي هذا الحفل ينفى بنذره إذ جاءه رسول النبي العربي بكتاب « محمد بن عبد الله » يدعو فيه هرقل ملك الروم إلى الإسلام . ولم تمض سنوات بعد ذلك حتى كان بيت المقدس وكانت الشام كلها في قبضة المسلمين ، وحتى وقف هذا الدين الجديد ووقف سلطانه ووقفت جيوشه الظافرة حائلا بين أوروبا المسيحية والوثبة إلى آسيا . وفي سنوات أخرى من بعد ذلك اندفع تيار الإسلام إلى مصر وإلى شرق أفريقيا حتى مراکش وحتى غزا المسيحية في إسبانيا ، فوقف الدين الجديد وسلطانه وجيوشه حائلا بين أوروبا المسيحية والوثبة إلى أفريقية . فإذا ظلت أوروبا المسيحية مكتظة النفس غلاماً

وحفيظة على هذا الدين الجديد وأهله ، وإذا هي حاولت في فترات كثيرة مختلفة أن تسير جيوشها الصليبية لغزوه وغزو أهله ، فلها من هذين العاملين عذر وشفيع ، ولها فيما يملآن به النفس حرصاً على الأخذ بالنار أكبر الرجاء في أن يكون لها على خصومها الفوز والغلب .

لكن جهود أوروبا ذهبت مع ذلك هباءً وتحطمت على صخرة هذا الإسلام الناشئ المطمئن إلى عزه وإلى قوته . فلماذا ؟ وكيف تندحر أوروبا ولديها من الأسباب النفسية للظفر ما يهيئ أمره ويجعله ميسوراً ؟ علة ذلك ترجع في رأيي إلى جمود النصرانية يومئذ وإلى اجتهد الإسلام . ففي هذه العصور الوسطى المسيحية كانت الكنيسة قد استأثرت بكل أمر ووضعت يدها على كل شيء . كان الملك في حاجة إلى رضا الكنيسة عنه وإلى مباركتها إياه ليطمئن إلى ملكه وإلى طاعة شعبه إياه ، وكان رجال الدولة يذعنون للكنيسة ويلتمسون بركتها . . . وكانت كلمة الكنيسة معتبرة كلمة الله وكلمة « المسيح » وكلمة الروح القدس نفسه ، لا يستطيع أحد أن يرفع إليها باصرته إلا بنظرة تقديس وإجلال لا تشوبها خلجة تساؤل أو ريب . وبذلك استشرى سلطان الكنيسة إلى كل نظام ، وإلى كل مجتمع ، وبلغ حتى دخل مع الأسرة دارها ، ومع كل رجل قلبه فاحتل قواده وأخذ عليه عقله وعاطفته وكل حياته . بذلك حملت الكنيسة وحدها عن الناس تبعاتهم ، وجعلت نفسها نائبة عن الله في المغفرة لهم . وبذلك استأثرت الكنيسة بحريتهم ، وبعقولهم ، وبضمايرهم ، فأصبحوا لها عبيداً سعداء بعبوديتهم ، سعداء بالطابع الذي طبعهم وتطبعهم به . ولم لا يكونون سعداء وقد نفت عنهم الكنيسة كل تكاليف الحياة الإنسانية . فليس لأحدهم أن يفكر مخافة أن يدفع به التفكير إلى الخطيئة . وليس لأحدهم أن

يحب مخافة أن يدفع به الحب إلى الخطيئة ، وليس لأحدهم أن يتصرف في أمر من الأمور برأيه مخافة أن يدفع به رأيه إلى الخطيئة . والكنيسة وحدها هي التي تفكر للناس جميعاً ، وهي التي تدلهم على ما يحبون وعلى ما لا يحبون ، وهي التي ترشدتهم إلى ما يتصرفون به في جليل أمورهم وتافهها . رسمت لهم حدود كل شيء وجعلت تخطى هذه الحدود خطيئة ، حتى حدود عواطفهم وأهوائهم . حتى حبهم لأزواجهم وأبنائهم . بل رسمت لهم كذلك طريق السعى والعمل وطريق الاستحمام والنوم . قيدت وجودهم الإنساني بأغلال من حديد ، وجعلت منهم آلات لا تريد إلا بإرادتها ولا تتحرك إلا بأمرها ولا تتنفس إلا هواءها . وآمنت هذه الآلات بأن هذا الجمود هو سبيل السلام ووسيلة النجاة والسلم إلى السماء يرتقيه الإنسان ليصل إلى مقعده بين البررة الأطهار . إذا وصلت الإرادة الإنسانية إلى هذا الفناء وكبلت حرية العقل وحرية الضمير بهذه الأصفاد فقد ضمرت فيها قوة الحياة فلم يبق لها على الحياة قوة ، ولا على أحد من أهل الحياة سلطان ، ولم يبق لها إلى النصر والغلب سبيل .

بينما كانت الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى تصل بالشخصية الإنسانية إلى هذا الجمود الذي يقعد بها عن أن تريد أو أن تعمل ، كان الإسلام في نشأته وفي فتوة شبابه يحطم القيود ويرفع عن الذاتية الإنسانية كل عبودية لغير الله وحده إياه نعبد وإياه نستعين . لم يعرف هذا الإسلام الناشئ كنيسة ، ولم يجعل لأحد من الناس على أحد سلطاناً ، ولم يجعل لعربي فضلاً على أعجمي إلا بالتقوى . لذلك ما لبث الأعاجم من أهل فارس وأمثالهم من البلاد الخاضعة لملك الروم أن اعتنقوا الإسلام حتى رأوا فيه الحرية للعقل والعاطفة والشعور ، الحرية التي تنكر الفوضى

والإباحية إنكارها للاستبداد والعبودية ، الحرية التي تعترف للعقل والقلب
 والمنطق والإلهام بحقوقها جميعاً في تنظيم حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل
 للفرد السيادة وللجماعة الطمأنينة في حدود تقوى الله ورضاه على ما نزل
 بها القرآن ، لا على ما تريدها أهواء ذوى الحكم والسلطان . لذلك نهى
 المسلمون من ورد هذه الحرية فغزوا بعقولهم وقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها
 وحكمتها وحكمة فارس وخيالها وشعرها . ولم يكن لأحد ولا لصاحب
 السلطان أن يصد عن ذلك إن لم يشجع عليه . وكيف يصد الحاكم عنه ،
 وإنما هو وكيل المسلمين في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه في القرآن الكريم .
 إن نظام الحكم الإسلامى لم يكن نظاماً أوتقراطياً للحاكم فيه الكلمة
 العليا . بل كان نظاماً محدوداً خير من عبر عن حدوده « أبو بكر » حين
 رضى الخلافة ، إذ خطب الناس فقال : « أيها الناس ، إني قد وليت أمركم
 ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، أطيعونى
 ما أطيع الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .
 وبالرغم من أن هذا النظام الذى رسم للحاكم حدوده الضيقة لم يلبث
 طويلاً في هذه الحدود ، ومن أن الخلافة سببت ملكاً عضوضاً
 منذ خلافة « معاوية بن أبى سفيان » . فإن الحرية التى أباحها الإسلام
 للمسلمين بقيت مكفولة لهم عصوراً طويلة يتمتع بها العرب وأهل الشام
 والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسلطان الدين القيم مسلماً كان أو
 من أهل الكتاب ، وبهذه الحرية أمعن المسلمون في نهلهم من فلسفة
 اليونان وأدبهم ومن حكمة الفرس وخيالها ، ومن كل ما يتصلون به أو يتصل
 بهم في البلاد التى تدين لهم أو تتعاهد وإياهم . والحرية الإنسانية
 لا غالب لها ما تحطمت من حولها القيود وما استمتع بها الإنسان

متاعاً صحيحاً . وقد ظلت هذه الحرية للمسلمين مكفولة إلى أن جاء العباسيون فزادوا في سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة بعد خطوة الأمويين ، خطوة نقلت الحكم من الشورى الإسلامية الصحيحة إلى الإطلاق الفارسي إطلاقاً مهد للانحلال الذى أصاب سلطة الإسلام في بغداد فنقل الحضارة الإسلامية التى ازدهرت في آسيا طوال عصر الأمويين والعباسيين لتزدهر في أفريقيا على ضفاف النيل ولتتخذ القاهرة مقراً لها . ولئن كانت القاهرة قد تأثرت إلى حد غير قليل بما أصاب دمشق وما أصاب بغداد فإنها احتفظت بالتراث الإسلامى الذى انتقل إليها كخير ما يكون الاحتفاظ به ، لأن حظاً غير قليل من الحرية كان لا يزال مسموحاً به للعلماء والمفكرين والشعراء وذوى الرأى والمكانة من المسلمين المصريين ، ومن المسلمين الذين نزحوا إلى القاهرة حين استقر ملك الإسلام فيها .

طبيعى ألا يوفق الصليبيون في غزواتهم بعد الذى رأيت من هذه المقارنة السريعة بين حالهم وحال المسلمين في هذه الفترة من قترات عصور المسيحية الوسطى . وطبيعى أن يزيدهم توالى الانحدار حقداً على المسلمين . لكن حقدهم لم يكن قادراً على شئ . فالجمود والتعصب حقودان بطبعهما ، عاجزان كذلك بطبعهما . والحرية والاجتهاد في صورتها الصحيحة لا يعرفان الحقد ولكنهما لا يغلبان ، ولذلك لم يقابل المسلمون غزوات الصليبيين بغزوات مثلاً . ولذلك كان الصليبيون كلما دارت عليهم دائرة الهزيمة ارتدوا إلى ديارهم فاستجمعوا زمناً يجترون خلاله هزيمتهم ثم تضطرم من جديد نار الحقد في نفوسهم بعد سنين أو عشرات السنين فيتجهزون لحرب صليبية أخرى يكون نصيبهم فيها الهزيمة التى كانت نصيبهم في سابقتها . وفيما بين الهزيمتين ، وخلال عشرات السنين هذه ، يطمئن

الأوروبيون ويطمئن أهل الشرق إلى حياة سكية وجد وسعى في مناكب الأرض ابتغاء الرزق . وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الأتراك من آسيا غزاة يفتحون الممالك ويدونون الملوك ويظفرون بدول الإسلام أكثر مما يظفرون بدول المسيحية ، ثم يتوغلون في أوروبا حتى تصدهم أسوار فيينا . كان هذا نصيب الحروب الصليبية ، وكانت تلك أسباب فشل الصليبيين فيها . على أن واحدة من هذه الحروب الصليبية قد نجحت وقد بلغت من النجاح أكثر مما كانت تطمح أول أمرها فيه . تلك هي الحرب التي أجلت أوروبا فيها الإسلام من الأندلس ، فقد دخل الإسلام حين سؤدد سلطانه إلى شبه جزيرة إيبيريا آملاً أن يمتد منها إلى فرنسا وإلى سائر أوروبا ليتصل بالإسلام الزاحف من الشرق عن طريق الشام والأناضول إلى المملكة الرومانية . لكن هذا الزحف من ناحية الشرق وقف بعد أن بدأ انقلاب نظام الحكم من الشورى الإسلامية إلى الأتوقراطية الفارسية . وبعد أن أتى هذا الانقلاب ثمرته المحتومة ، انحلال القوى المعنوية وتضعيف الإيمان الصادق في النفوس . لذلك لم يتح للذين فتحوا الأندلس أن يتوغلوا في أوروبا بعد أن صدتهم عن التقدم إلى فرنسا فاكفوا بإقامة الدولة الإسلامية في إسبانيا وظلت هذه الدولة قوية مزدهرة زماناً ، لكنها أصيبت هي الأخرى في نظام حكمها بما أصيبت به بغداد وسائر الأقطار الإسلامية . ثم إنها اطعمت إلى النعمة المادية في الأندلس طمأنينة آتت ثمراتها ، وثمرات الطمأنينة في النعمة المادية التنافس عليها والتحاسد في سبيلها والتناحر والتطاحن للاستزادة منها . وذلك ما حدث . وكان من أثره أن كثرت الإمارات وأن ضعف السلطان المركزي وأن طمع المسيحيين في استرداد ما يؤمنون بأنه حقهم ، وشغلت سائر دول الإسلام يومئذ

بمثل ما شغلت به الأندلس من الجرى وراء مطامع الحياة الدنيا والنضال في سبيلها تفانياً أنسى المسلمين أنهم إخوة يجب أن يسرع كل منهم إلى نجدة أخيه . وأجلت المسيحية الإسلام عن الأندلس واستعادت إسبانيا كلها وإن فقد بها ما وصفنا من جمودها عن أن تتأثر المسلمين في تراجعهم وأن تتبعهم في أفريقيا . وبذلك بقيت القوتان الإسلامية والمسيحية وجهاً لوجه يفصل بينهما البحر المتوسط ، وقد دب إلى دول الإسلام انحلال كالذي أدى إلى هزيمة المسيحية . انحلال سببه هذا الجمود الذي أصاب المسلمين فجعل علماءهم ومفكرهم يتزلون لصاحب السلطان عن حريتهم ويضعون تحت تصرفه علمهم لقاء ما يغدقه عليهم من نعم مادية كانوا أشد فرحاً بها منهم بحريتهم ويعلمهم . وبذلك لم يقووا على صد غزوة الترك الذين ظفروا بهم ثم ظفروا من بعدهم بالقسطنطينية وبما تلاها من بلاد المسيحية حتى قسطنطينية .

لم يكن الأتراك في هذا الغزو دعاة إلى حضارة ، ولا دعاة إلى دين . بل كانوا غزاة طامعين في أسلاب الغزو وفي استغلال الأمم التي يغزون على مثال أكثر الغزاة في ذلك العصر وعلى مثال أوروبا في هذا العصر الحاضر ، ولقد كان لهم من العذر في ذلك أن ظروفهم الخاصة لم تكن تهيئ لهم الاضطلاع بعبء حضارة معينة ، لقد كانوا مسلمين ، وكان الطبيعي أن يرتعد أعداء الحضارة الإسلامية المهتدة يومئذ بالانحلال تحت أنقاض الجمود . لكن مقومات الحضارة الإسلامية كانت تغور هؤلاء الزاحفين من قلب آسيا حيث كانت تحيط بهم أثناء مقامهم في وطنهم صور من العقيدة والحضارة لا تتفق في شيء مع صور الحضارة الإسلامية والعقيدة الإسلامية . ثم إنهم أبدوا حرصاً على لغتهم ونفوساً من

اللغة العربية. واللغة العربية كانت في البلاد الإسلامية جميعاً لغة الدين ، ولغة العلم ، ولغة الأدب ولغة المقومات الأساسية جميعاً لأية حضارة من الحضارات . لذلك كانوا أشد حرصاً على مغنم الغزو منهم على تأييد الحضارة الإسلامية . ولذلك لم يفكر أحد منهم في رفع نير الجلود الذي أصاب المسلمين في عقائدهم وفي فقههم وفي لغتهم وإن حرصوا على أن يأخذوا من مصر ومن سائر البلاد التي غزوا مهرة الصنائع ورجال الفن ممن وثقوا بمقدرتهم على تشييد المظاهر المادية وعلى توطيد أسباب الثروة والنعمة المادية . كانت النتيجة المحتومة لهذا الغزو التركي المعتمد على الملكات الحربية ، والنفور من مقومات الحضارة الإسلامية الصحيحة ، أن ازدادت الأمم الإسلامية جموداً في العقيدة وفي التفكير . وإن نشأت فيها طائفة من رجال الدين على مثال الطائفة التي قيدت المسيحية في عصورها الوسطى بأثقل الأغلال : طائفة أنكر الإسلام منذ ظهوره حقها في الوجود ، ووضعت طائفة رجال الدين المفتعلة نفوذها وحريتها وما تدعى من علم في خدمة الغزاة الغالبين مما أدى إلى استمرار الانحطاط والتدهور في العالم الإسلامي الذي خضع للنير التركي . ولكن هذا الغزو التركي كان له في أوروبا المسيحية نتيجة هي النقيض من هذه . نتيجة محسنة آذنت بانتقال مد الحضارة إلى الغرب بمقدار ما كان من طردها في الشرق الإسلامي ، وكانت مقدمة البعث الأوربي والحضارة الغربية الحاضرة .

ظهرت هذه النتيجة التي أثمرت الحضارة الغربية في بطاء وأناة وبعد جهود شاقة ونضال عنيف عشرات السنين بل مئاتها . كان الجيل يعقب الجيل ، وفي كل جيل يبدو من هذه الشجرة أثر جديد ، وفي هذه الأثناء كانت الإمبراطورية التركية ينفصح مدى سلطانها الحربي ليزيد الأمم

الإسلامية جموداً وركوداً . فلما آن للغرب أن يسترد - باسترداده الحرية الإنسانية - مكانته ، اتجه إلى هذه الإمبراطورية التركية يريد أن ينتقم منها لنفسه ، كما وجه الغزوات الصليبية من قبل إلى أمم الإسلام لينتقم منها . وحاولت أوروبا بعد الحرب الكبرى أن تقضى القضاء الأخير على الرجل المريض ، وألقى اللورد اللبني تصريحه بأن الحروب الصليبية انتهت . يريد بذلك أن المسيحية انتقامت لنفسها انتقاماً حاسماً من الإسلام . وتلك لعمري سخرية من القدر مرة . فلو أن شيئاً أسمه الاعتراف بالجميل كانت تعرفه العلاقات الدولية لذكرت أوروبا للترك فضلها الأول في القضاء على الدول الإسلامية بالجمود ، وفي تمهيد الطريق للبعث الأوربي وللحضارة الغربية الحاضرة . لكن الحياة الدولية لا تعرف هذه المعاني إلا بمقدار ما تعاون هذه الحياة . فإن هي وقفت في سبيلها حطمتها وداستها ونحطتها إلى ما هو خليق بمزيد في الحياة .

كيف أدى الغزو التركي إلى بعث أوروبا وإلى الحضارة الغربية الحاكمة اليوم في الشرق والغرب ؟ ! وكيف اضمحلت دول الشرق حتى خضعت كلها لنير أوروبا ؟ ! وهل اضطلعت الحضارة الغربية برسالة خاصة تتجه بالإنسانية نحو كمالاتها وسعادتها ؟ ! وماذا كان موقف الشرق من الغرب في هذه الظروف المختلفة ؟ وما موقفه اليوم ؟ ! . . .

٢ - إبان البعث الأوربي

تقدم الأتراك في أواسط آسيا فغزوا البلاد الواقعة في طريقهم حتى اقتحم « محمد الفاتح » القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ ، وتقدم خلفاؤه إلى أسوار فيينا . ووقفت أوروبا في وجه هؤلاء المسلمين الفاتحين مستأنية خائفة على مصير المسيحية . واتجه الأتراك بغزواتهم وبفتحهم إلى البلاد الإسلامية فتقدموا إلى الشام وإلى مصر ، وتم للسلطان « سليم » وضع يده على القاهرة في سنة ١٥١٧ . وبديهي - وللأتراك من الملكات الحربية مالم ودينهم الإسلام - أن يحملوا أهل بيزنطة على اعتناق هذا الدين ، وكان من أثر ذلك أن هاجر العلماء والكتاب المسيحيون المقيمون في شبه جزيرة البلقان وفي اليونان إلى روما وإلى بلاد أوروبا المسيحية المجاورة للبلاد التي غزاها الأتراك وفتحوها وعملوا على أن تملو فيها كلمة الإسلام .

وقفت أوروبا مبهوتة إزاء هذا الفتح الجديد ، وجعلت تفكر في هذا الماضي الذي حاولت فيه عبثاً أن تسترد الأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وفي هذا الغزو الجديد الذي أعاد إلى الذاكرة غزو العرب بلاد الأندلس : فليس طبعياً أن تتعرض أوروبا لكل هذا الغزو وكانت إلى الأمل القريب بئامن من غائلة الشرق وكانت خلال القرون المسيحية الأولى صاحبة مجد الحضارة في العالم كله . لقد مدت روما في العصور التي سبقت المسيحية والتي تلتها إمبراطوريتها المترامية الأطراف إلى الجزء الأكبر من أقطار العالم المعروف يومئذ ، كانت أعلام « قيصر » تخفق

في مصر ، وكانت جنوده تخترق أوروبا إلى إنجلترا . فلما دالت دولة روما قامت بيزنطة مقامها رافعة شأن المسيحية مقيمة في مختلف الدول علم حضارتها الخفاق . وظلت أوروبا من بعد ذلك تشن الغارات الصليبية على دول الإسلام غارة بعد غارة . فماذا أصابها حتى أصبحت مهددة كل هذا التهديد بأن تذلل للمسلمين ، وبأن تذلل للأتراك القادمين من ظلمات آسيا . فكر أهل أوروبا يومئذ في ذلك وأخذوا أنفسهم بالبحث عن أسبابه ووسائل التغلب على هذه الأسباب . وكانت لهم في هجرة العلماء الذين أجلاهم الغزو التركي عن بيزنطة إلى روما وإلى أوروبا الوسطى ما يكفل دقة هذا البحث وما يمهّد في نفس الوقت إلى مقدمات البعث الأوربي الذي تمخضت عنه أوروبا بعد مائة سنة أو مائة سنة من اقترحام الأتراك المسلمين عاصمة المسيحية يومذاك .

وفي طبائع الناس أن يتساءلوا في مثل هذا الموقف عما إذا لم يكن للدين الذي يدينون به تبعة عن المآل الذي هووا إليه . وكان مثل هذا التساؤل محتوماً يومئذ أن كان تبادل الغزو قائماً بين المسيحية والإسلام وأن كان للإسلام الفوز والغلب . وفي طبائع الناس إذا ألقوا مثل هذا السؤال أن يلهمهم الحق بالإجابة عنه بالنفي .

إن الدين الذي كان يوماً سبب الرفعة والفوز والغلب لا يمكن أن يكون هو بذاته سبب التدهور والانحلال والهزيمة . فإن يكن على عقائد الناس في تضعضع عزائمهم ونخور نفوسهم تبعة ، فلا بد قد اندس إلى هذه العقائد باسم الدين ما ليس من الدين ، وما أفسد العقائد وزعزع الإيمان الصحيح في النفوس . فهل حدث من ذلك شيء في المسيحية ؟ ! وإن يكن قد حدث فما عساه يكون ؟

طرح مفكرو أوروبا في القرن الخامس عشر على أنفسهم هذا السؤال ، وبحثوا يلتمسون الجواب . وليس العثور على الجواب في مثل هذه الظروف ميسوراً . فرجال الدين الذين يوجه إليهم هذا الاتهام لا يذرون عندئذ فرصة إلا انتهزوها للقضاء على خصومهم . ورجال الدين من أهل الكنيسة المسيحية كان لهم من السلطان المطلق ما رأيت مجمل صورته في الفصل السابق ، ولم يقف سلطانهم عند وضع يدهم على إرادة الناس وعلى تفكيرهم . بل امتد إلى المغفرة للمذنب ومحو خطيئة المخطئ ، ولم يكن هذا الغفران حرصاً منهم على ألا يعود المخطئ إلى خطيئته . فقد كانت براءات الغفران تباع يومئذ وتفيد الكنيسة منها أموالاً طائلة . إذن فقد أنقلب الدين وسيلة للوصول إلى المال وأصبحت الكنيسة تقتضي المال بهذه الوسائل الخاطئة باسم الرب وباسم « المسيح » فتريد في سلطانها المادى ابتغاء الغلب في هذه الحياة الدنيا . تحدث العلماء في هذا وأنكروه فيما بينهم على الكنيسة من غير أن يجترئ واحد منهم على التظاهر في وجهها مخافة أن تحطمه قوة سلطانها . كانت للكنيسة تصرفات غير قليلة تشبه بيع براءات الغفران ، وإن لم يكن منها ما تبدل ومخالفته للعقل بديهة بداهة بيع هذه البراءات . وتزايد حديث العلماء فيما بينهم وألقوا على الكنيسة تبعات ما تنوء به أوروبا من تدهور ، حتى قبض الله رجلاً من رجال الدين يحمل كلمة العلماء هذه ويلقي بها في وجه زملائه ، ذلك « مارتن لوتر » . من يومئذ بدأت الثورة على الكنيسة وتعاليمها . ومن يومئذ بدأت الكنيسة تشعر بقوة هذه الضربة الموجهة إلى سلطانها المطلق شعوراً جعلها تحاول القضاء عليها في مهدها - وقد سلكت لذلك مختلف السبل حتى نزلت إلى ألوان من المهاترة ، منها أن اتهمت لوتر في نزاهته وألقت عليه أنه إنما قام في وجهها لأنه يريد أن

يخرج كقسيس على تعاليم الدين التي تحظر الزواج على القسس وتسمو بهم عن حب المرأة وإلى تكريس كل حبيب للسيد « المسيح » ، وأن الشيطان الذى زين له حب المرأة وأغراه بالزواج هو الذى دفعه ليرفع عقيرته فى وجه براءات الغفران وهى وسائل طمأنينة وسعادة للمسيحيين جميعاً . ولكن صيحة لوثر لقيت فى كثير من أنحاء البلاد المسيحية صدى قوياً ، لأنها كانت تعبر عما يحول بالنفوس وتكاد تفيض به القلوب على المخاطر بل على الألسن . صحيح أن الناس وقفوا باهتين إزاء هذه الجراءة التى لم تكن معروفة من قبل . لكن ذلك إنما كان بقية مما صور الوهم لنفوسهم من سلطان الكنيسة القاهر فى الأرض وفى السماء . فإذا كان هذا السلطان لا ينال من « لوثر » بأكثر من توجيه تهم لا دليل عليها فقد آن للناس أن يفيقوا من غفلتهم ، وأن يطرحوا كابوس الوهم الذى أثقلهم ، وأن يزداد الصدى الذى تتجاوب به أنحاء المسيحية لصيحة لوثر سلطاناً وقوة . وكذلك أعلنت الثورة على الكنيسة وأعلنت على الحمود الذى قيدت الكنيسة به العقول والقلوب ، وكذلك امتدت هذه الثورة من براءات الغفران إلى سائر مقررات الكنيسة مما لا يطمئن إليه العقل ، وكذلك بدأت قيود العقل تحطم رويداً رويداً ، وبدأ « كالفن » فى سويسرا و« جون نوكس » فى إنجلترا يعلنان الثورة التى أعلنها لوثر ويناديان وإياه بأن الدين لا يمكن أن يناهض العقل . وأن ما خالف العقل ، من مقررات الكنيسة ، لا بد أن يكون خارجاً على الدين . وبذلك انتشرت ثورة الإصلاح الدينى فى نواحي أوروبا المختلفة انتشاراً اضطر كنيسة روما إلى التفكير فى موقفها وإلى إعادة النظر فى كثير من مقرراتها .

لم تكن هذه الثورة من « لوثر » و« كالفن » و« نوكس » ثورة على

الدين ، بل كانت كما رأيت ثورة من طائفة من رجال الدين على الكنيسة ومقرراتها . وبعبارة أدق كانت ثورة من الاجتهاد الديني على التقليد الجامد في الدين ، وكانت ثورة العقل المقيد على قيوده . ولم يكن طبعياً أن تقوم يومئذ ثورة على الدين كالثورة التي قامت من بعد بزعامه « قولثير » وبزعامه أساطين العلم الواقعي من بعده . فإلى يومئذ كان سلطان الدين يتناول كل شيء ، وكان العلم بعض ما يتناول . ذلك بأن الإنسان لم يكن قد فصل بين الدين والعلم على نحو ما فعلت أوروبا من بعد - حين أوقفت الإنسان من الوجود موقف الخارج عنه المشاهد إياه بلاحظه ويستنبط من ملاحظاته قوانينه . بل كان الإنسان ما يزال يشعر بنفسه قسماً غير منفصل من الوجود متأثراً به أكثر من تأثيره فيه ، فلم يكن له من أجل ذلك بد من أن يطمش إلى موقفه منه بين أزله وأبده . لذلك تجاور العلم والدين في النفس الإنسانية ، ولذلك كان بين العلم والدين من التعاون والتضامن ما رأى الإنسان ضرورته لسعادته في هذه الحياة الدنيا وفيما بعدها . على أن علم الإنسان كان يومئذ محدوداً ، وكانت معارفه قليلة لا تكفي لتبصر له سبيل الحياة ولتزيده عليها قوة ، فلم يكن بد إذن من طمأنينة الإنسانية إلى الإيمان لتقوى به على الحياة وتهتدى به إلى الخير والنعمة فيها . ولذلك ظل الأمر لرجال الدين بعد ثورة الإصلاح كما كان لهم قبلها ، وإن نشبت بينهم أسباب من الخصومة بل العداوة مهدت للمفكرين من غير رجال الدين أن يشقوا لأنفسهم طريقاً يصل بهم إلى صفوف الإنسانية الأولى ، ويسمح لهم بمشاركة رجال الدين في توجيه الناس في الحياة ، وبممكنهم بذلك من مشاركة رجال الدين في السيطرة على الناس ، وفي تول زمامهم ، وفي القيام منهم في مناصب الحكم .

لم يوفق بعض هؤلاء المفكرين إلى بلوغ المكانة التي قصدوا إليها .
 فقد نادى بعضهم بأمور تخالف مقررات الكنيسة من غير أن تكون بديهة
 لدى العقل . فالأرض كروية أو مسطحة ، وهل هي تدور حول الشمس
 أو أن الشمس هي التي تدور حولها . هذه وأمثالها من المعارف التي أصبح
 الواقع منها في حكم البديهيات أمام نظرنا كان ما قرره العلماء منها مخالفاً
 لما قررت الكنيسة ، لذلك لقي هؤلاء العلماء - كما لقي المتشككة -
 عتاً من جانب الكنيسة لم يثر رجال الدين ، ولم يثر الرأي العام في وجهه
 لأنه كان بمثابة الدفاع عن الحقائق المقررة . وللحقائق المقررة مكانتها
 من النفوس ؛ فهي تميل أبداً إلى الاطمئنان إليها وتنظر شراً لمن يخالفها أو
 يحاول نقضها حتى تستقر مكانها حقيقة غيرها تطمش الجماعة لها وتؤمن بها .
 ولم يكن رجال الدين وحدهم هم الذين حاربوا هذه الحقائق الجديدة .
 بل ازور كذلك عن تأييدها جماعة المفكرين من غير رجال الدين ممن
 لم يعبأوا أنفسهم بتحميصها . هؤلاء المفكرون هم جماعة التجريديين -
 الميتافيزيقيين - الذين جعلوا منطق العقل وحده وسيلة الوصول إلى ما سموه
 الحقيقة المطلقة . وهؤلاء كانوا يرون حقاً ما أقره العقل وإن أعوزه الدليل
 المحسوس ، وكانوا يرون ما نقاه العقل وإن أيدته الكنيسة مفتقراً إلى الدليل
 كي يثبت . وواسطة العقل في التدليل المنطقي . لذلك كان المنطق أداتهم
 الأساسية لإقامة الدليل .

كان الكثيرون من هؤلاء المفكرين من غير رجال الدين مؤمنين
 إيماناً صادقاً . لذلك اعتمد رجال الدين عليهم وعلى أداتهم في البحث
 والتدليل أزماناً طويلة . وزاد الخلاف بين رجال الدين ونحلهم المختلفة
 في ظل هؤلاء المفكرين الذين كانوا يؤيد بعضهم ديناً بعينه ، ويؤيد

البعض الإيمان بالله وبالروح وخلودها وبالبعث والحساب . وتطلعت الصفوة من أهل كل أمة إلى ناحية هؤلاء المفكرين والفلاسفة على أنهم الأمل المرجو للمستقبل بعد أن بدأ سلطان الكنيسة يذوى ويتوارى ، وبذلك نهضت الفلسفة التجريدية نهضة قوية أدت إلى تقدم التفكير وإلى افتتاحه مختلف الميادين ، وإلى ملاحظة المفكرين الواقع المحسوس وإلى استنباطهم الأدلة منه ، وإلى تمهيدهم بذلك العلم الواقعي الذي كان موقوفاً إلى ذلك الحين على خدمة الدين والفلسفة .

كانت هذه النهضة في التفكير نتيجة محتومة للإصلاح الديني . وكانت قائمة على أساس ما نقله العلماء الذين أجلاهم الأتراك عن بيزنطة من منطق اليونان وفلسفتها وحكمتها . وقد أدت النهضة الفكرية إلى إطلاق حرية العقل في سيادين أخرى مختلفة نشأت عنها نهضات تأثرت هي الأخرى بالثقافة اليونانية ، أول هذه النهضة الأدبية . فقد قام « شكسبير » وقام من بعده « ملتن » في إنجلترا ، كما قام « راسين » و« كورني » في فرنسا ، بشيرون في شعر بالغ غاية القوة والجمال صوراً وعواطف دينية وإنسانية كان التغنى بها من قبل يعتبر هرطقة ومجديفاً . وإلى جانب النهضة الأدبية قامت في الفن نهضة قوية بدأت في إيطاليا ثم امتدت منها إلى بلاد أوروبا المختلفة . وكذلك حطمت أوروبا قيد الحرية الإنسانية التي كبلتها به الكنيسة عصوراً طويلة باسم الدين ، ففتح باب الاجتهاد أمام التفكير وأمام الفن والأدب ، وفتح باب الاجتهاد في الدين نفسه بعد أن ظل مغلقاً أجيالاً وعشرات الأجيال .

بينما كانت أوروبا تنهض هذه النهضة تاركة حروبها الصليبية العقيمة جانباً ، مستقلة بنفسها وبإصلاح طرائق تفكيرها ، وبإطلاق الحرية

من قيودها ، كانت صفائح الجمود تزداد في الشرق كثافة وتحجراً . وبينما كان المفكرون والعلماء ورجال الأدب ورجال الفن في الغرب تأخذ كل طائفة منهم بيد صاحبها لتريد في حريتها فتريد بذلك في نتائجها ، كان الفن والأدب والعلم والتفكير يصفد في الشرق وفي الدول الإسلامية ليضع رجال الدين يدهم على كل ذلك وليزيدوا في القيود الجامدة التي لا يجوز تخطيتها أو التفكير على نحو غيرها . وأيد الخلفاء من بني عثمان في تركيا وفي سائر أنحاء الإمبراطورية الإسلامية هذه القيود الجامدة ، وأسبغوا عليها باسم الخلافة طابعاً دينياً لا يجوز لإنسان أن يناقشه أو أن يضع جليلة أوحقيره موضع البحث ، ولم يجد رجال الدين ولا وجد الخلفاء يومئذ عتاً فيما صنعوا من ذلك . فنظام الحكم الإسلامي الذي انتقل من الشورى على ما وصفها « أبو بكر » إلى الأوتقراطية المطلقة ، ومن وكالة الخليفة عن المسلمين إلى استبداده بهم واعتباره نفسه وكيل الله عليهم وكلمة الله فيهم ، قد تدرج في ذلك من الخلافة إلى الملك العضود في عهد بني أمية إلى وكالة الخليفة عن الله وكالة وصفها « المنصور » العباسي بقوله : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتأيدده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيته بإذنه ، جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحتي لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يغلطني عليها أقفلني » . وقد نشأ عن هذا التدرج أن صارت الدولة الإسلامية محكومة منذ عهد العباسيين بنظام استبدادي طوع للفتح والغلب في أيام الخلفاء الراشدين منهم كما حدث في عهد « الرشيد » و « المأمون » ، كما مهد للفتنة والاضطراب مما حدث أيام « المستنصر » وجماعة الذين خلفوه ممن انتهت بهم الدولة العباسية ومن مهدوا للجمود والتأخر . من ذلك الوقت أسبغت

النظرية الاستبدادية على الملك والسلطان جلالاً كجلال الله ، وجعلت للخليفة عرشاً كعرش الله ، واستمدت له قداسة روحية من أمر الله . ولم يكن الملوك ولا كان الخلفاء هم الذين صوروا عرشهم واستمدوا من الله استبدادهم ، وإنما صور لهم هذا العرش واستمد لهم هذا الاستبداد جماعة الفقهاء والمتكلمين الذين التمسوا من وراء ذلك الإفتاء عطف صاحب السلطان واقتناص الجاه والمال مما يجود به على المنافقين من حوله ، وليظل هذا الاستبداد آمناً مطمئناً لم ير الفقهاء بدءاً من أن يمكنوا له في النفوس بأن يلبسوه لباس الدين . وليزيدوا في أمن الاستبداد وطمأنينته رأوا تقليل الإرادة الإنسانية وتكيب العقل الإنساني والعاطفة الإنسانية . لذلك نشطوا يضعون القواعد ، وينظمون حياة الأفراد في كل كبيرة وصغيرة ، ويرتبون الجزاء على مخالفة هذا النظام ويسندون ما يقررون من ذلك كله إلى الدين ، ويجعلونه بعض ما أتى الرسول به الناس ، وبعض ما نهاهم عنه ، ويشيرون إلى أن ما قرروا للسلطان من حق الجزاء في هذه الدنيا لا ينبت ما يجزى به الإنسان في الآخرة ويصورون هذا الجزاء في الآخرة تصويراً فيه من الدقة المادية ما في تصويرهم للجزاء الذي يوقع في هذه الحياة . وهم فيما قاموا به من ذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان وسلوكه ، مما يجيش بخاطره ويحس به بينه وبين نفسه إلا نظموها . فكيف يأكل الإنسان ، وكيف يشرب ، وكيف يستحم ، وكيف يتعاشر مع غيره ، وكيف يؤدي التحية وكيف يردها وكيف يقوم وكيف ينام وكيف يعامل أهله في بيته - كل ذلك نظم أدق نظام ، ورتب على مخالفته الجزاء ، وأنت تستطيع أن تذكر أى شيء مما في الحياة وتجاربها سواء بين الإنسان وبين نفسه ، أو بينه وبين أهله ، أو بينه وبين المجموع ،

وبين الشيطان ، أو بينه وبين الله ، تستطيع أن تذكر أى شئ من هذا لئلا قد نوقش وبحث واستمدت له القواعد والأحكام من القرآن ، فإن لم توجد في القرآن فمن الحديث ، فإن لم توجد في الحديث فمن السنة ، فإن لم توجد في السنة فمن الإجماع ، فإن لم توجد في الإجماع فمن القياس . واستمر النشاط في هذا السبيل عصوراً متوالية كان يقوم أثناءها الحين بعد الحين مجتهد لا يعنى كثيراً بهوى صاحب السلطان فيقرر ما يراه حكم الدين الحق دون أن يخشى قيام الفقهاء الرسميين عليه ورميهم إياه بالمروق والزندقة والإلحاد . فلما بدأت عصور الانحلال بانحلال الدولة العباسية وكثرت الفرق خيف أن يقوم من بينها من يحاول هدم المذهب الرسمي من ناحية ، وخيف من ناحية أخرى أن يقوم داع يهز في النفوس الكرامة الإنسانية واحترام الذات وتحريم العبادة لغير الله ، فيدعو بذلك إلى الانتقاص على سلطان واه مزعزع ما أيسر ما تعبت به هزات النفوس . لذلك قام جماعة من أولئك الفقهاء الذين وصفنا فتادوا بأن الشيعة فشلت باسم الاجتهاد وأن أفكار الرفض والإلحاد تروج تحت ستاره وقرروا لذلك إقفال باب الاجتهاد وضرورة تقليد السلف والأخذ بأحكامهم ، واعتبروا كل خارج على هذه الأحكام مارقاً كافراً جزأؤه جزء من ارتد عن دينه ومثواه في رأيهم جهنم وبئس القرار .

كانت النفوس في هذه البلاد الإسلامية قد انحلت يومئذ فسكنت إلى هذا القرار ولم تثر عليه . وظل الأمر كذلك حتى جاء الأتراك فحكموا العالم الإسلامي واتخذوا من فقهاء المسلمين بطانة يزيدون في أغلال العقول وأصفاد القلوب . ولعل الإنصاف يقضى ألا نحملهم من تبعة ذلك كثيراً ، فهم لم يكونوا يعرفون روح الإسلام الصحيحة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون

لغته ، ولم يكونوا لذلك قادرين على إدراك أسراره . ولئن كان من بينهم علماء حاولوا معرفة أسرار الدين فأولئك قد عرفوها في كتب التدهور والجمود وكانوا بطبيعتهم الحربية وبطبيعة البيئة التي أنبتهم والمعارف المبعثرة التي سعوا بها لفهم الدين - مبالغين لتصديق كل ما كان خارجاً على الطبيعة مامياً فوق العقول . إنما التبعة على فقهاء المسلمين الذين باعوا علمهم للأتراك ، والذين انحط إدراكهم حتى صاروا يرون في كل جديد إلحاداً ومروقاً ، وصاروا يحرصون على الجمود أشد الحرص ويرون في القضاء على كل اجتهاد رحمة من الله بعباده ويصفقون الشعوب الإسلامية حتى يصبح التقليد التام الأعمى أساس حياتها في نظام حكمها وفي شريعتها وفي أخلاقها وفي آداب مجتمعتها ، وفي طرائق تفكيرها ، وفي معالجاتها العظيمة والحقيرة والجليل والتافه من كل شؤون الحياة .

مع هذا التدهور في العقيدة وفي التفكير ومع تصفيد الحرية بالأغلال الثقيل ، ومع خضوع العالم الإسلامي لنير الترك خضوعاً أعمى في العصور التي كانت أوروبا تتحرر خلالها من سلطان الكنيسة وتترع فيها إلى تحكيم العقل وتقوم فيها نهضات زاهرة للأدب والفن والفلسفة ومناثر صور التفكير والإحساس - مع هذا كله ظلت الدولة الإسلامية محتفظة بمركزها ، وظلت أوروبا في شغل بنفسها عن التفكير في غزو صليبي وفي غزو جديد أياً كان نوعه . ويرجع ذلك إلى اعتبارات عدة ؛ فملكات الأتراك العسكرية ، ومجدهم الحربي كانت تبعث الرعب إلى النفوس وتصد عن التفكير في غزو البلاد الإسلامية المستظلة كلها أو أكثرها يومئذ بالعلم التركي . فلم تنس أوروبا تقدم الجيوش التركية ظافرة إلى أسوار عاصمة النمسا وتهديدها قسناً وتهديدها أوروبا بأسرها . والدول لا تنظر بعضها إلى بعض ولا ترتب

علاقات بينها على أساس تقدم العلم والحضارة أو تأخرهما فيها ، وإنما ترتب هذه العلاقات على أساس القوة الحربية المادية . وإذا لم يكن في ذلك شيء تفاخر به الإنسانية أو تعتبره سبباً لمجدها فإنه لسوء الحظ هو الذى كان واقعاً يومئذ ولا يزال الواقع اليوم . ثم إن أوروبا كانت في شغل بنفسها وبالأضطرابات الدينية والسياسية الداخلية التى لم يكن منها مفر بسبب تطور العقلية الأوروبية هذا التطور السريع الذى وصفنا . وليس من شأن الإنسان - حين شغله بنفسه وباضطراب أموره الخاصة - أن يفكر في مهاجمة غيره وفي غزوه . وبخاصة إذا كان هذا الغير مخشياً الأيد مرهوب الجانب . والدولة الإسلامية كانت محتفظة بمركز القيادة يومئذ في العالم ، كما كان مركز التجارة والرخاء الاقتصادى بين المسلمين . يضاف إلى ذلك أن اكتشاف كوليبوس لأمریکا فتح أمام أوروبا ميادين للاستعمار خفت إليها إسبانيا فوجهت نظر غيرها من الدول الأوروبية إلى ناحيتها . ولم يكن الهنود الحمر من مكان أمریکا ليخيفوا أوروبا ما تخيفهم الدول الإسلامية التى وقفت حائلاً بينهم وبين آسيا ، والتى أرتهم من الصلابة إبان الحروب الصليبية ومن البأس حين اقتحام الأتراك أوروبا . ما لم يروا بعد شيئاً منه فى أمریکا . فإذا كانت الدولة الإسلامية يدب إليها ديب الفساد وتجرى مسرعة فى سبيل الانحلال فإن هالة ماضيها أقامت حولها سياجاً من وهم صد أوروبا عن التفكير فى مهاجمتها وغزوها .

وقد يكون هذا عجيباً . لكن الأعجب منه أن الدولة الإسلامية بقيت بمعزل عن الثورة القوية القائمة فى أوروبا تحطم القيود وتبشّر للحرية الفكاك من إسارها ، وكأنما بين الشرق والغرب أسوار من حديد تحجب هذه الحركة عن أنظار الشرق لتدعه يغط عشرات السنين ومئاتها فى سباته

وكانه لا يصل إليه شيء من علم المجازر التي تحدث باسم الدين وباسم الإصلاح في أوروبا ، أو كانه في سعادته بمجوده ينظر إلى هذه الحركة على أنها طيش جنونى غير لائق بهذا الشرق العريق في مجده العريق في حضارته ، أن يأبه لها أو أن يفكر فيها . وأدعى للعجب أن تكون الغزوات الصليبية قد فتحت عيون أهل أوروبا المسيحية على كثير مما في الشرق ، وقد دعت هؤلاء المسيحيين إلى التفكير فيه فكان إلى جانب غزو الأتراك أوروبا وهجرة العلماء المسيحيين من بيزنطة إلى الدول التي تجاورها بعض ما أسرع بأوروبا إلى بعثها . أما الشرق فظل في سكينته الجامدة ، بل ظل يزيد في هذه السكينة جموداً . وأنت تستطيع أن ترى ذلك وأن تلمحه مجسماً في كتب المتأخرين من متكلمي الشرق وفقهائه ممن سخرُوا ملكاتهم لخدمة الخليفة العثماني حينما كانوا من نواحي الإمبراطورية العثمانية . فقد بلغ من جمود التفكير في تلك العصور أن حصر العقل في حدود أنانية ضيقة ترتب عليها إبراز الفكرة غير المحدودة بطبعها في صورة شيء ماذى محدود ككل محسوس ماذى ، لا على أنها صورة ذهنية في طبعها التمدد في لانهايات المكان والزمان . تمهداً هو وحده الكفيل لها أن تثمر كل آثارها . وأنت إن رجعت إلى كتب فقهاء تلك العصور رأيت هذه المادية الوثنية صريحة واضحة ممتدة إلى كل ما يحتمل التحديد ولا يحتمل التصوير المادى ، بل ممتدة إلى الروح وإلى خالق الكون - تعالى خالق الكون عما يصفون - في هذه الكتب ترى وصفاً مادياً للعرش وتصويراً مادياً للملائكة الحافين من حوله ، وذكراً مادياً للألفاظ التي تخرج من أفواههم في التبشيع بحمد الله وفي تقديسه . وهذا الوصف والتصوير المادى هما في الإسلام الصحيح وثنية لا ريب وتحريف . وإذا تناولت المادة تصوير

العرش والملائكة وتسيبهم فأجدر بها أن تتناول الرسل والأنبياء وصفاتهم وحياتهم . وقد فعلت ، فمما تحدثت فيه ما إذا كان الرسل بعد موتهم عليهم السلام يحيون في القبر حياة مادية يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ، وتناولت المادية الشمس وما إذا كانت ساعة مغيبها تختبئ تحت عرش الله العظيم حتى يؤذن لها أن تشرق في الصباح . وإنك لتقرأ في سير الأنبياء التي كتبت إلا تلك العصور ما ترى أثر المادية فيه واضحاً إلى حد لا تستطيع معه دون الابتسام ازدراء بهم وإشفاقاً عليهم . ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال في هذا وفي مقدور من شاء أن يطلع على ما كتب من السير في تلك العصور ويلمس فيها من هذا السخف المادى ما تنزهت عنه السير التي كتبت في عصور أقرب إلى عصور أولئك النبيين ، وحين كانت تلك السير ما تزال في صفائها الأولى أو ما تزال قريبة كل القرب منه .

إذا انحدرت النفس الإنسانية إلى هذه الهاوية من التصور المادى ونظرت إلى العالم على أنه آله ، لا على أنه فكرة ضاق نطاق التفكير أمامها وأجمعت أنبل عواطفها ، وحمد صوت الضمير فيها ، وتداعت المعاني الإنسانية السامية جميعاً أمامها وتحركت في أعماقها السلائق الحيوانية الصرقة ثم تحكمت فيها ووجهتها في كل مشاعرها وكل تصرفاتها . وذلك ما حدث أو ذلك ما كان أثراً محتوماً لها ، ظل علماء المسلمين يعلمون الناس قروناً طويلاً وجوب الإذعان إلى من تولى الأمر سواء أكانت ولايته الأمر شرعية أم معتصة . ولقد دفعت السلائق الحيوانية إلى هذه النفوس الإنسانية التي فقدت كل معنى إنسانى أحط الأخلاق وأسفلها . دفعت إليها الكذب والتفايق والتحايل لانتقاء غضب كل ذى سلطان ، ولانتقاء غضب الحاكم ، ولانتقاء غضب الله معتبرة إياه جل شأنه وكأنه

حاكم من الحكام أو رئيس من الرؤساء . وعاون العلماء والفقهاء على نمو هذه الأخلاق الرضيعة في النفوس بما جعلوا يصدرون من الحيل الشرعية التي يتحايل بها المسلم على أحكام القرآن وعلى أوامر الدين ثم يكون من جزاء الله بمنجاة ، كأنما الله ليس بمطلع على الغيب وعلى ما تخفى الأنفس وعلى خائنة الأعين . وافتنت طائفة من الفقهاء في تصوير هذا الحيل ، ووصلت من طريق هذه الفتاوى التي تصدرها في شأنها إلى ما تصبو إليه من رضاء مادي وإلى حظ عظيم من متاع هذه الحياة الدنيا متاع الغرور . وإذا ساغ للنفس أن تتخذ الحيلة وسيلة إلى الله وأن توجه إليه بالتفاق والكذب فما عسى يقف أمامها في التوجه إلى الحاكم وإلى صاحب السلطان ، وما عسى يقف أمامها في بلوغ غايتها أبأ كانت هذه الغايات ؟ ! وما دام صوت الضمير قد جمد فقد آن للرديلة أن تلبس ثوب الفضيلة ، آن لكل نقص وفساد أن يجد ما يبرره ، بل ما يصوره كملاً وخيراً . ولا شيء أفتك بحياة الشعوب من أن تنقلب عندها المقاييس الصحيحة للحق والفضل . ولا شيء أدعى إلى انحلال الأمم وإلى أن تدول الدول من تحكيم السلائق الحيوانية في الإنسان تحكماً يهوى بملكاته العليا إلى الحضيض فيسلك من أجل ذلك طريق الضلال .

وفيما كان هذا التدهور يستشري في شعوب الشرق الإسلامي كانت نهضة أوربا العقلية والأدبية والفنية سائرة في طريقها لا تفر ولا تنفي ولا تعرف هواده أو توكلاً . وكان أعظم ما غنى به القائمون بهذه النهضة معرفة الطريقة الصحيحة في التفكير ؛ الطريقة التي تهدي إلى الحق وتصل بالإنسان إلى حسن إدراكه . وإذا كانت ثورة لوثر ومن سار في طريقه قد بدأت تحطم سلطان الكنيسة المطلق وتعرف للعقل بحقه في أن يفكر مستقلاً

ليصل إلى معرفة الله وما أمر به ونهى عنه ، ثم كانت نهضة الفلسفة التجريدية قد قامت في أثر ذلك تبغى لإثبات الحقائق المقررة طريق المنطق غير المقيد إلا بحكم العقل ، فقد آن للتفكير الغربي أن يخطو خطوة جديدة إلى إباحة العلم الواقعي . وقد مهد لهذه الخطوة ما قام بين الفلاسفة التجريديين من نزاع يشبه بعض الشيء ذلك النزاع الذي قام منذ قرن أو نحوه بين رجال الدين . . نزاع اشترك فيه رجال الدين أنفسهم لأنهم رأوا في تقدم الفلاسفة إلى الصف الأول من صفوف الجماعة الأوربية ما كاد يقضى على قوتهم ويدك سلطانهم ويتزع منهم ما كان باقياً بين أيديهم من أعنة الحكم . اختلف الفلاسفة أن كان من بينهم ملاحظة ينكرون الدين وينكرون الوحي وينكر بعضهم وجود الله وحسابه ، ولكنه يعمل ليحل الفلسفة في النفوس محل الدين ويجعل لها سلطانه ؟ ولم يأبه رجال الدين بالملاحظة من الفلاسفة لأنهم رأوهم أبعد من أن يصلوا إلى نفوس الشعوب ليوجهوها وليأخذوا بزمامها ، فحاجة الشعوب إلى الإيمان حاجة طبيعية ملحة لا غناء للشعوب عنها كي تعيش . وحاجة الشعوب إلى الإيمان كحاجتها إلى الهواء وإلى الماء وإلى الغذاء . فإذا دعاها داع لتؤمن بأنها في غير حاجة إلى الإيمان وأن الإيمان أكذوبة وضلال سخرت منه ورأته بعيداً عن الحقيقة بعد الذي يزعم لها أنها في غير حاجة إلى الهواء أو إلى الماء : فأما الفلاسفة المؤمنون الذين أرادوا أن يحلوا الإيمان الفلسفي محل الإيمان الديني فأولئك كانوا في نظر رجال الدين مصدر الخطر . لذلك وجه رجال الدين قوتهم لمناهضة أمثال « ديكارت » و « روسو » وغيرهما من المؤمنين الذين يقيمون صروح الإيمان الفلسفي على قواعد يسيغها العقل وتطمئن لها النفس وتستهوى المجموع استهواء يجعله يؤيد هؤلاء الفلاسفة على حساب رجال

الدين . وأنت أقدر على قياس مدى الخطر الذى خشيت به الكنيسة المسيحية هؤلاء الفلاسفة إذا ذكرت أن «روسو» حاول أن يقيم ديناً جديداً يحل محل الأديان المقررة . فإذا ناهضت الكنيسة هؤلاء الفلاسفة . وإذا هى استعدت عليهم سلطان الحاكم وغضب الجماعة ، وإذا هى حاربتهم بكل وسائل الحرب ، فلها من العذر أنها إنما تريد الاحتفاظ بسلطانها . بل الاحتفاظ بحياتها .

واشتدت الحرب بين الفلسفة والكنيسة ، وازدادت المعركة أواراً وشدة . وألقى الفلاسفة أنفسهم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم موضع مهاجمة رجال الدين ، فلم يروا بدءاً من أن تتضافر جهودهم أثناء المعركة ، وأن تكون بينهم هدنة حتى إذا تم لهم الظفر بخصومهم عاد كل منهم إلى مناهضة رأى صاحبه . وفى سبيل النصر فضح الفلاسفة المؤمنون والفلاسفة الملحدون جميعاً مخازى الكثيرين من رجال الدين ، وأظهروا المجموع على شره هؤلاء وشهواتهم وحبيهم المال ، ونهالكهم على الملاذ ، وحرمانهم المجموع من كثير من أسباب نعمته وسعادته ليتمتعوا هم بالنعمة والسعادة .

مهدت هذه المعركة إلى خطوة جديدة يخطوها التفكير الغربى نحو إباحة العلم الواقعى القائم على طريقة الملاحظة والمقارنة والاستنتاج لمعرفة سنن الكون الثابتة بالدليل المحسوس الممكن تحقيقه ، والذى لا يقبل لذلك خلافاً أو جدلاً . وقد ظلت العلوم الوضعية قبل استقلالها فى خدمة التجريد زمناً طويلاً ، كما ظلت قبل ذلك زمناً طويلاً فى خدمة اللاهوت . لكن الجدل العنيف بين الكنيسة والفلسفة جعل رجال العلوم الوضعية يأنفون أن يغللوا وأن تظل علومهم فى خدمة الفلسفة أو فى خدمة الكنيسة ودفعهم ليطبقوا طريقتهم على جميع فروع المعارف التى لم تكن

خاضعة من قبل لها ، كالمباحث النفسية والاجتماعية والاقتصادية والبحوث العقلية ، وزاد ذلك في نشاط هؤلاء العلماء « لأوجست كنت » و « للامارك » من قبله في فرنسا ، و « هربرت سبنسر » و « لدارون » من قبله في إنجلترا ، و « لهكل » و « هيجل » وغيرهم من العلماء في ألمانيا أن يبنذوا كل مالا تثبت طريقتهم مما سبق إليه اللاهوت وسبق إليه التجريد ، وأن يعتبروا اللاهوت والتجريد حالتين من حالات العقل الإنساني ممهدتين للحال العلمية التي اعتبرت في نظرهم الصورة النهائية لما يجب أن تكون عليه مباحث العقل .

وقد غلا أنصار المذهب الواقعي ، والعلم الواقعي في تقدير ما يستطيع العلم غلواً دفع « ريتان » ودفع « نين » ، ودفع كثيرين غيرهما في مختلف بلاد أوروبا إلى الاعتقاد بأن العقل الإنساني سيصل من طريق هذا العلم إلى معرفة سنن الكون جميعاً ، وإلى الكشف عن أسرار الوجود كشفاً مادياً يلمسه العقل الإنساني ويقم الدليل عليه ويحل بذلك ما كان يظنه الإنسان طلام لا سبيل إلى تلمس شيء من حقيقتها إلا بوحى الإلهام .

وعلى أساس من هذا الاعتقاد قام الإيمان في أوروبا بأن الحضارة الإنسانية قد اطمأنت إلى الأساس الثابت الذي تقوم أبداً الدهر عليه . أساس العلم الذي لا يعرف إلا ما أثبت العلم ، والذي يطرح كل ما لم يثبت العلم جانباً حتى يحى دور إيثاته . وهذه العقيدة نظر رجال العلم هؤلاء إلى الفلسفة التجريدية وعلى ثغرهم ابتسامة إشفاق لهذه المجهودات الكثيرة التي أنفقت الإنسانية ظانة أنها تصل من طريقها إلى الحقيقة ، ثم إذا ما صنعت لا يزيد على مضاربة نظرية تقيم فروضاً وتهدم فروضاً ولا تقرر حقاً ثابتاً . ونظروا إلى الكلام وإلى الدين بأكثر من نظرة الإشفاق .

نظروا إليه وإلى رجاله نظرة حقد وكراهية وإصرار على ألا يكون هؤلاء

الرجال على الحياة من بعد سلطان . وكذلك اتفقت كلمة العلماء مع كلمة الفلاسفة في شأن الدين ورجاله .

إلى أى مدى حقق العلم الواقعى آمال السابقين من رجاله ؟ ليس هذا الفصل موضع القول فى هذا ، لكن هذا العلم الواقعى قد بعث فى حياة الاختراع الصناعى روحاً قوياً ناشطاً جعل الناس يرون من آثارها كل يوم جديداً ، ودفع بها لذلك إلى الصف الأول من صفوف الحياة الاقتصادية ، ونفخ بذلك فى حياة الاقتصاد السياسى روحاً جديداً هو الآخر ، وأنزله من المعارف الإنسانية فى منزلة العلوم الواقعية مما أدى إلى تصوير المذاهب الاقتصادية تصويراً جديداً غير الذى كان معروفاً إلى يومئذ . ومن ثم أقام «جون ستوارت» المذهب الفردى يعارض به المذهب الفريقراطى . ومن ثم نشطت المذاهب الاشتراكية حتى قام «ماركس» يضع مذهب الاشتراكية العلمية . ومن ثم لم تبق حضارة أوروبا حضارة العلم وحده ، بل صارت حضارة العلم والصناعة جميعاً ، وقد كان لهذا التحول فى توجيه الحضارة آثار كثيرة مختلفة سنعرض لبعضها فى غضون هذا الكتاب .

وكان لهذا التطور فى طرائق التفكير الإنسانى من الأثر فى الأدب والفن مثلما كان له فى الصناعة . وقد أشرنا إلى نهضة الأدب والفن منذ بدأت ثورة الإصلاح الدينى ، ومنذ بدأ انتشار الثقافة اليونانية فى أوروبا فى القرن السادس عشر . ولم تكن هذه النهضة أقل من نهضة طرائق التفكير نشاطاً ، وصارت النهضتان تؤثر واحدتهما فى الأخرى وتقضيان فى نفس المجموع الأوروبى على ما كان من حصر دائرة العلم والأدب والفن فى حدود الكنيسة وما نشاء ، وتناولان من شؤون الحياة كل ما

يكشف العلم عنه وتسبقان العلم في أحيان كثيرة ، وتسبقانه أحياناً عشرات السنين بل مثاتها إلى تقرير حقائق تظل مفتقرة إلى الدليل العلمى ، وتظل منظوراً إليها من ناحية العلماء بعين الريبة ، ثم يقوم الدليل العلمى عليها وتصبح من مقررات العلم بعد أن كانت من مقررات الفن والأدب وحدهما .

طبيعى أن تتنفس هذه الثورات الدينية والأدبية والفنية والعلمية عن انقلاب جوهرى في نظام الجماعة وفى طريقة حكمها ، وأن تتنفس لذلك عن ثورة أشد من كل هاته الثورات عنفاً . تلك هى الثورة السياسية ؛ فالنظام السياسى فى أمة ما ، هو التصوير العلمى لحياة الجماعة وكيف تسير ، وإنما يصدر هذا التصوير عن طريقة تفكير الجماعة ويتغير كلما تغير ما بنفسها وقد تغيرت نفس الجماعة على رجال الدين الذين استأثروا بالحكم أجيالاً لاعتراف الجماعة لهم أنهم يمثلون آماها ومطامعها ، فخرج الحكم من يدهم وأوشك أن يخرج من يد الملوك الذين يؤيدهم رجال الدين ويزعمونهم خلفاء الله على الأرض . وقد قامت الثورة الدموية فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر فانتهد بإعدام لويس السادس عشر ونشرت الفلسفة ثم نشر العلم الأفكار الديمقراطية التى تجعل لكل شعب أن يحكم نفسه بنفسه ، فأمن بها الناس وضموها إلى العلم وإلى الصناعة على أنها أساس من أسس الحضارة التى أقاموا . وإذا كانت الديمقراطية لا تتحقق إلا حيث ينحصر الوطن فى حدود معينة ، وحيث تقوم لذلك فكرة القومية أصيلة فى النفوس للدفاع عن هذا الوطن ، فقد وطدت أوروبا هذه الفكرة وجعلت القومية أساساً رابعاً من أسس تلك الحضارة .

ليس يدخل فى نطاق هذا البحث تفصيل هذه الأسس للحضارة الأوروبية بأكثر مما سبق . ونحن إنما سقنا ما تقدم لأن أوروبا التى عدلت عن

غزواتها الصليبية منذ غزو الأتراك إياها ، والتي أقامت داخل حدودها إبان تحريك الثورات التي أشعلنا إليها أحشاءها قد بدأت منذ القرن الثامن عشر ترحف على الشرق وتزعم أنها تريد من هذا الزحف أن تقر الحضارة في ربوعه ، وأنها تريد « تغريب » هذا الشرق - على حد تعبير الأستاذ « حجب » في كتاب (وجهة الإسلام) - فماذا فعلت لإقرار هذه الحضارة في الشرق ؟ وإلى أى مدى وصلت من تغريبه ؟ وهل كان الشرق أول زحف الحضارة الأوروبية الجديدة عليه مستعداً لحسن قبولها ، وماذا ثار في أحشاء الشرق من رد الفعل إزاء هذه الحضارة ؟ أترأه أساغها وتمثلها ، أم فرضت عليه فأذعن لها ؟ وهل وصل ما تمثله منها إلى أعماق تفكيره ؟ إحضار هذه المباحث يحتاج تفصيلها إلى إفاضة طويلة لا متسع لها هنا لأنها تحتاج إلى مجلدات عدة ، لكننا سنلم بها جميعاً إماماً لا بد منه لتصوير الشرق الجديد وما نريده أن يكون .

٣ - الحضارة الاستعمارية

ماذا فعلت أوروبا لتظل الشرق بلواء حضارتها . . ؟ لقد رأينا هذه الحضارة تقوم على أسس من العلم والصناعة والديمقراطية والقومية فأى هذه الأسس اتخذت منه علم حضارتها ؟ وهل سلكت إلى نشرها سبيل الحضارات التى سبقتها ؟ أم اختطت لنفسها طريقاً جديداً ؟ وإن يكن ذلك فألى أية غاية أدى الطريق الجديد بها ؟ !

جعلت الحضارات التى سبقت حضارة الغرب الأساس الفكرى والنفسى لعلم حضارتها ، فتاريخ المسيحية شاهد بأنها - وقد نشأت فى أحضان قوة روما المادية - إنما كان أساسها قوة روحية تحترق المادة وتستهن بأذى أصحابها وتعتبر الثروة أكفل الوسائل لتورط الروح فى الخطيئة حتى ليكون دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت الله . جعلت المسيحية من الفكرة الروحية أساس قوتها وأقامت النظام الفكرى والحياة النفسية على قواعد من هذا الأساس الروحى فعززت الإنسان لذلك بقوة الكون المعنوية جميعاً يقف بها فى وجه كل أرباب المادة والمؤمنين بسلطانها فيخضعهم لقوة روحه ويحملهم على اتباعه ويصل بهم إلى ما وصلت المسيحية من روما . وتاريخ الإسلام شاهد بأنه أنزل ليحطم فى النفس الصور المادية ممثلة فى هذه الأوثان التى كان العرب يؤمنون بها ، ممثلة كذلك فى كل إيمان بغير الله وحده لا شريك له . وقد حطم الإسلام فى انتشاره القوى السريع كل ما سوى هذا الإيمان من صور ، وأخضع كل ما فى الحياة من مادة وقوة للإيمان بالله يسمو به الإنسان فوق ما فى الحياة الدنيا جميعاً ليكون بعض قوى الكون الباقية بقاء الروح المتصلة بالعالم وبالوجود كله منذ أزلته إلى أبده .

وعلى الأساس الروحي أقرت المسيحية حضارة لم تدم في صفاتها طويلا أن اختلطت بالوثنية الرومانية وبعقائد السواد المصرى التى تدهور إليها التوحيد الفرعونى . لذلك تعرضت هذه الحضارة المسيحية لألوان من الاضطراب كانت مع عوامل أخرى مما أسرع بروما إلى الانهيار وما جعل الدولة البيزنطية تقف في إبان قوتها من كل سلطان مادى موقف روع وفزع ، لا تحفزها الأسباب التى كانت تحفز روما إلى التوسع وإلى حمل علم الحضارة التى حملت روما إلى أنحاء العالم بكل عظمة ومجد . فلما جاء الإسلام وبدأ بتنظيم الحضارة الإسلامية حول فكرة التوحيد الروحية السامية أسرع إلى الانتشار وأسّرت الحضارة الإسلامية إلى الاستقرار في الممالك المختلفة المترامية الأطراف بين المحيطين الأطلنطي والهادى ، وبعبارة أخرى في ممالك العالم المعروف في ذلك الحين . وقد وقفت المسيحية في وجه الإسلام بعد أن حصرها في أوروبا عصوراً طويلة تريد أن تنفذ إلى قلب أفريقيا وآسيا ، وفي تلك العصور كانت الفكرة الروحية في صفاتها أول الأمر ثم مشوشة مضطربة على نحو ما وصفنا في الفصلين السابقين ، هى اللواء الذى تقدم به صفوف المسلمين وتقدم به صفوف المسيحيين لغزو الإنسانية . وبرغم ما انحدرت إليه هذه الفكرة في العصور المسيحية الوسطى ، وفيما سبق الغزو التركى وما لحقه في العالم الإسلامى ، فقد بقى اسم الرب عند المسيحيين ، واسم الله عند المسلمين ، هو الذى تهتر له أوتار الأفئدة وتتوجه إليه القلوب في طلب النصر والظفر ، وبقى الإنجيل عند المسيحيين ، وكتاب الله عند المسلمين ، آية هذه الحضارة التى يريد هؤلاء وأولئك أن ينشروا لواءها ليظل العالم جميعاً .

لو أن الحضارة الغربية سلكت في محاولتها غزو العالم ما سلك الإسلام

وما سلكت المسيحية من قبل لكان لواء العلم خفاق البنود في طليعة الغزاة الأوربيين لأمريكا بعد اكتشافها ، ولآسيا وأفريقيا عند اقتحامهما . ولعل ذلك قد دار بخاطر بعض الفاتحين الأوربيين فقد رأينا « نابليون » إذ جاء إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر وقد استصحب معه بعثة علمية تدرس أحوال مصر ، وأنشأ بالقاهرة مجمعاً علمياً فرنسياً . ولعله كان يريد أن يجعل هذا المعهد نواة لمعهد علمي مصري إذا استقر الأمر لفرنسا على ضفاف النيل . وهذه المحاولة من « نابليون » لنشر أفكار الثورة الفرنسية في مصر تجعلنا نعرف لهذه الثورة الفرنسية بما دار بخلد أبطالها من تبشير بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة في أنحاء العالم التي غزت . لكن هذه المحاولة لم تدم طويلا ولم تتعد أوروبا إلى غير مصر في خلال الفترة القصيرة التي أقام الفرنسيون بها ، فأما ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها إلى وقتنا الحاضر فلم تقم الحضارة الأوربية لغزو العالم باسم العلم ولا باسم التفكير الحر ، وإنما قامت وتقوم لغزوه باسم الصناعة الأوربية وإقحامها على بلاد العالم جميعاً . وهذا الأساس المادى البحت هو الذى جعل أوروبا تسمى حضارتها الحضارة الاقتصادية ، وما جعل المبادئ الاشتراكية من فردية واشتراكية وشيوعية هي الأساس الذى يقوم عليه كل نضال في أوروبا سواء في شؤونها الفكرية أو السياسية ، والحافز الذى وجه الحضارة الغربية في غزوها الشرق غرواً يجعل الحضارة الغربية مرادفة للاستعمار في ربوعه .

والحق أن العلم والحرية العلمية لم يرتفع علمهما قط في طلائع غزو الغرب سائر ربوع العالم . وندع الغزوات الأولى التي قام بها الإسبان في أمريكا ، وندع الهجرة الإنجليزية للولايات المتحدة . فقد كان عنصر الاستعمار المادى هو الحافز لإسبانيا كما كان الفرار من وجه العسف

الدينى هو الحافز للإنجليز الذين ذهبوا إلى العالم الجديد . صحيح أن هؤلاء وأولئك لم تحركهم بعد استقرارهم بأمريكا أية عاطفة إنسانية إزاء أهلها حمر الهنود ، على العكس من ذلك قد جعلوا استئصال هؤلاء السكان الأصليين مرمى سياستهم وأساس حضارتهم . وكل الأعداء التى تصاغ لتبرير خطة الاستئصال أقصر من أن تسوغ هذا العمل الهمجى البحت . لكن أوروبا كانت فى ذلك الحين على درجة متأخرة من الحضارة هى وحدها التى تنهض عذراً لها عن تلك الوحشية . ولنا بمعرض التحدث عن أحوال الغرب التى سبقت حضارته الحديثة . فلتتخط إذن هذه الفترة إلى حين بدأت أوروبا تفاخر العالم بحريتها وبعلمها ، وحين بدأت تغزو الشرق بعد أن وقفت منه عسوراً وقروناً طويلة موقف الخائف الوجل .

حاولت أوروبا أن تصل إلى آسيا فوجدت فى وجهها السد الإسلامى المنيع الممتد من مراكش إلى القسطنطينية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية جميعاً . ولم يدر بخاطرها أن تقتحم هذا السور وهى تذكر منعبه وتخشى أن تتعرض للخسائر الفادحة من الأموال والرجال إذا هى أقدمت على اقتحامه . وما لم يكن الحافز للإنسان على مغامرة إيمان ثابت يستهين بالحياة فى سبيله ما استهان المسيحيون الأولون والمسلمون الأولون . فإن الغنى المادى ، وإن عظم ، أهون من أن يدفع بصاحبه إلى المخاطر الجسيمة . وبالرغم مما استطاعت البرتغال من تحطيم الأسطول المصرى فى القرن الخامس عشر فإن اقتحام السور الإسلامى ظل خاطراً تضطرب له أعصاب أوروبا . لذلك كان اكتشاف « فاسكو دى جاما » طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى آسيا بالدوران حول أفريقيا كلها هو الذى بعث الرجاء إلى نفس أوروبا الضائعة لاستعمار الشرق . مع ذلكبقى هذا

الظماً مكبوحاً فيما خلا محاولات هولندا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حتى طوعت له مغامرات الأفراد ، فقد ذهب جماعة الإنجليز الذين كونوا شركة الهند الشرقية في مدراس ، كما ذهب جماعة من الفرنسيين كذلك إلى الهند حيث أقاموا في بوندتشرى . ولم يكن غرض هؤلاء ولا أولئك علمياً ، ولا كانت له صلة بالحرية ولا بالديمقراطية ، إنما كان غرضاً تجارياً مادياً بحثاً . وعلى أساس هذا الغرض توسعت الشركة الإنجليزية توسعاً أتاح للحكومة الإنجليزية مؤازرتها ، ثم كان مقدمة تغلب إنجلترا على النفوذ الفرنسي في الهند وتوغل إنجلترا بعد ذلك في هذه البلاد التي أقعدها الجحود الدينى والجحود الاجتماعى عن الحركة ، وقعد بها عن أن تدفع عن نفسها عدوان المعتدين . على الرغم من ذلك بقيت إنجلترا مترددة عشرات السنين دون اقتحام الممالك الهندية الخاضعة للنفوذ الإسلامى . لأن اسم الإسلام كان إلى يومئذ لا يزال مهيب الجانب محترماً مخوفاً .

هذا الأساس التجارى الذى أخذ بالتدريج صبغة الاستعمار هو الذى طبع غزو الحضارة الغربية الشرق ولا يزال يطبعه . وكانت الوسائل التى سلكتها أوروبا في هذا الغزو أقل ما تكون نفقات فى الأموال وفى مهيج الرجال . فهى قد آثرت بادئ الرأى أن تترك العالم الإسلامى لا تتعرض له . ولم يكن ذلك حرصاً منها على صداقة هذا العالم . فأوروبا لم تقم وزناً لاعتبار الصداقة يوماً من الأيام . إنما كان ذلك لأنها آثرت ألا تتعرض لاندحار قد يفسد عليها خططها الاستعمارية . وكان ذلك لأن مبدأ القومية - الذى قام أساساً من أسس الحضارة تدعياً للفكرة الديمقراطية - قد جعل دول أوروبا ينظر بعضها إلى بعض نظر تنافس وخصومة فى الاستعمار ، لا نظر

تعاون وتضامن في إذاعة العلم وبث حضارة تؤمن دول أوروبا بأنها تكفل سعادة العالم وخيره . وفكرة القومية هذه هي التي أملت على أوروبا سياستها الداخلية وسياساتها الخارجية كما أملت عليها سياستها الاستعمارية . ولذلك كانت كل واحدة من الدول الأوروبية تعمل تحت تأثير الفكرة القومية دائبة تريد إضعاف الدول الأوروبية الأخرى . وكانت كل واحدة منها تخاف أن يتبعها غيرها إلى فتح في الشرق جديد . لذلك هبت جميعاً تتسابق لكسب صداقة تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدعوى ضمان سلامة الأراضي العثمانية . وفيما كان هذا الاتجاه يمل على دول أوروبا الغربية سياستها جميعاً إذا « بطرس الأكبر » في روسيا يحاول أن يسلك سياسة جديدة . وإذا به يحاول غزو تركيا والاستيلاء على البسفور والدرديل ليظل الدب الأبيض برأسه على البحر الأبيض المتوسط . هنالك ازدادت دول أوروبا الغربية حرصاً على سلامة الأراضي العثمانية . واطمأنت تركيا إلى هذا التنافس بين الدول وجعلت خططها أن تريد في أسبابه معتقدة أنه كاف وحده ليكفل لها إلى الأبد البقاء . وأكد هذه العقيدة في نفوس سلاطين تركيا أن وقفت أوروبا في وجه جهود « بطرس الأول » و « كاترين الثانية » ، وإن أبقت لبني عثمان إمبراطوريتهم . ولقد نسي خليفة المسلمين أن كل سلامة مستمدة من نزاع الغير غير معتمدة على قوة الدولة الذاتية ، سلامة معرضة في كل فرصة للخطر ، جديرة بأن تعرض الدولة التي تعتمد عليها إلى الاضمحلال وإلى الفناء .

لم تكن الدول في تنافسها لضمان سلامة الأراضي العثمانية ، بريئة من الغرض . وإذا كانت كل منها تعلم أن أية فكرة ترمى إلى غزو تركيا تقابل من جانب الدول الأوروبية الأخرى بالتضامن مع تركيا في صدها ، فقد وجهت هذه الدول مطاعمها إلى ناحية أخرى ، ناحية التوسع في الامتيازات

الأجنبية ، وجعلت كل واحدة منها تقتضى ثمناً لهذا الضمان توسعاً في هذه الامتيازات يسمح لها بغزو سلمى لا اعتراض من جانب الدول الأخرى عليه بأكثر من مطالبها تركيا بمثله . واغبطت الخلفاء العثمانيون لقصر نظرهم بهذا الثمن الذى حسبه طفيفاً ، لذلك انقلبت الامتيازات الأجنبية التى كانت من قبل ضماناً من الحكومة التركية لحرية الأجانب ولعدم إعتاتهم حقوق سيادة هؤلاء الأجانب وللدول التى نزع هؤلاء الأجانب إلى تركيا منها . كانت غاية ما يطمع الأجنبى من حماية الامتيازات قبل هذا التوسع فيه ألا تفرض عليه ضرائب غير ما يفرض على العثمانيين ، وألا تقتضى هذه الضرائب بوسائل العنف والعسف . فأزال هذا التوسع حق الدولة العثمانية في فرض الضرائب على الأجانب إلا أن ترضى دولهم . كانت التجارة والربح منها كل ما يطمع الأجنبى الوافد إلى البلاد العثمانية فيه ، فأصبحت مزاوله المهن الحرة ، ثم أصبح انتشار المدارس بعض ما هؤلاء الأجانب ولدولهم من حقوق وسيادة تحد من السيادة العثمانية . كان الخليفة الإسلامى حامى حسمى الملة والدين في بلاده ، فأصبح التبشير المسيحى بعض الحقوق التى تكفلها الامتيازات الأجنبية في حدود بلاد الدولة . ويقع هذا ويقع أضعافه برضا الخليفة التركى وهو به مغتبط لأنه الثمن الذى يحسبه متواضعاً لكفالة الدول الأوروبية سلامة أراضيها العثمانية . وما تناله الدول الأوروبية من حقوق في تركيا برضا الخليفة العثمانى يمتد باسم الإسلام الذى يقوم الخليفة على حمايته إلى بلاد العالم الإسلامى كله حتى ما لم يكن منها تابعاً لتركيا . ومع فداحة هذا التغلغل في شؤون الدول الإسلامية ، وهذا الاقتطاع من سيادتها فداحة ستعود إلى بيان بعض آثارها من بعد ، فقد أذعنت هذه الدول والحكومات الإسلامية للأمر الواقع ولم

تقم الشعوب الإسلامية من جانبها بشيء من رد الفعل ضده . بل ظل هذا التداخل باسم الامتيازات يستشري وتستفحل آثاره والدول والشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية عنه لاهية بل به راضية ، غافلة عن النتيجة المحتومة التي لا بد أن تترتب عليه .

لماذا هذا الإذعان وهذا الاستخذاء ؟ !

لأن نظام الحكم ، ولأن الحياة الاجتماعية في هذه الشعوب الإسلامية والشعوب الشرقية كانت قد وصلت من الجمود إلى ماسبق لنا وصفه ، ولأن هذه الشعوب رأت في الحياة الجديدة الوافدة عليها من أوروبا صوراً تحطم من قيود الجمود وترد إلى الإنسان حظاً من الحرية يجعل للحياة قيمة لم تكن لها . ومهما تكن الحرية التي جاء بها الأوروبيون إلى الشرق متجهة إلى نواحي الحياة المادية أكثر من اتجاهها إلى نواحيها الفكرية والمعنوية فإن كل قدر يحطم من الجمود يبعث إلى النفس رجاء في نعيم الحياة لم تكن تطمح من قبل فيه . فإذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة أن يرى أبنائها أفكاراً جديدة يستريح إليها العقل ، وإذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الإنسان عن فكره بحرية لم يكن يعرفها ، وإذا أتاح للإنسان أن يعيش حياة مادية أكثر رخاء ، وإذا بعث الأمل في تحطيم قيود الجمود قيداً بعد قيد - إذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد نسي الأفراد الدولة وسيادتها ، وبخاصة إذا كان نظام هذه الدولة أوتقراطياً بشع الاستبداد كما كان الشأن في تركيا ، وبخاصة إذا كان صاحب هذه السيادة راضياً عن تقييدها ثمناً لما يناله من ضمانات الإمبراطورية وسلامة أراضيها ، وكيف ترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة إذا كانت هذه السيادة ستاراً للفساد والظلم والقضاء على صور الحرية جميعاً ، وإذا كانت قيود هذه

السيادة تفتح فرجة أمل في تحطيم قيود الحرية . إن الشعوب يومئذ لتفكر في سعادتها وفي رخائها وفي طمأنينتها قبل التفكير في سيادة الدولة . فإذا بلغت من ذلك مقاماً ترضاه توجهت بهمتها إلى نظام الدولة وإلى حقوقها . فإذا أصبحت الدولة ممثلة الشعب كما يجب أن تكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحريتها وتضافرت لإقامة استقلالها ومجدها .

وتم اعتبار آخر هؤلاء على الشعوب إذعانها واستخذاءها . ذلك إذعان الحكومات واستخذائها . فهؤلاء الأجانب الذين وفدوا على مختلف البلاد الشرقية وأقاموا فيها ألواناً من حياة أوربا قد رأوا من حكومات هذه الدول ترحيلاً بهم وإقبالاً عليهم وحماية لهم يتمنى أهل البلاد بعضها ولا ينجدها . يجب إذن أن يكون هؤلاء الأجانب في نظر تلك الحكومات الشرقية جديرين بهذا التقدير والاعتبار ويجب أن يكونوا أرقى في مراتب الحياة لينالوا كل هذا الاعتبار . لذلك لم تنظر لهم تلك الشعوب على أنهم إخوان في الإنسانية هجروا بلاداً ضاقت بهم فلم يجدوا في المقام بها خيراً وهم لذلك جديرون بشيء من الإشفاق ، مطالبون بأن يقدروا هذا الإشفاق حق قدره . بل نظرت إليهم على أنهم أبناء أمم أسمى نفوساً وأرقى عقولاً وأقدر على حكم الحياة وأجدر بأن يكونوا مثلاً يحتذى لينال محتديه شيئاً مما ينالون من كرامة وحق وسلطان على الحياة . وقد حصل الذين احتذوا مثال هؤلاء الأجانب من حكوماتهم الشرقية على شيء من ذلك كله مما لم يكونوا يحصلون عليه من قبل ، وما لا يحصل عليه من لم يتخذوا الأجنبي قلدتهم ولم يخرجوا بذلك على قديم جمودهم . وشجع هذا السبق في ميادين الحياة على اتساع نطاق الاحذاء وعلى محاكاة الطائفة الحاكمة من أهل البلاد

لهذه الحياة التي وردت مع الجاليات الأجنبية . ولم يكن ذلك عجباً وقد جعلت الحكومات نفسها تستورد من صور هذه الحياة ما تراه حقاً بأن ينيلها عطف هذه الدول التي أطلقت على نفسها اسم « العالم المتمدن » . استوردت الحكومات أسماء النظم الأوربية وصورها الظاهرة مكتفية بذلك عن حقائقها وقيمها الذاتية . أقامت هيئات إلى جانب الحكم المطلق أطلقت عليها اسم الشورى أو النيابة عن الأمة لتضاهي البرلمانات ومجالس النواب . أنشأت مدارس وألبست أبنائها الزي الأوربي وأدخلت فيها تعليم بعض اللغات الأجنبية لتضاهي المدارس الأوربية . أقامت للعدل نظماً صورها الظاهرة كالنظم الموجودة في أوربا . وكان ذلك كله اعترافاً منها بأن الحياة الأوربية هي الكفيل بالرقى في سلم التمدن وأن النهج على متوالها هو الذى يسمو بالإنسان إلى مقام الحضارة . ولكي يكون لهذه المظاهر جميعاً من حسن السمعة ما يوهم عظيم شبهها بأمتالها في أوربا استعارت حكومات الشرق رجالاً من الغرب لإيقان تصوير هذه المظاهر . فلا غرو إذا نزع أبناء الشعوب الشرقية إلى محاكاة الوافدين عليهم من أبناء الغرب في مظاهر حياتهم ، وإذا اعتبرت هذه الشعوب في ذلك ما يقرها من حضارة الغرب وما يكاد يدفع حضارة الغرب بحياها .

ولعل مصر كانت أكثر دول الشرق سبقاً في هذا الميدان ، فمصر بطبيعة مركزها الجغرافى هي عقدة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومصر كانت أبالة « ولاية » عثمانية كغيرها من سائر أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، لكنها كانت على خلاف غيرها دائمة التمرد والثورة على سلطان الدولة . وقد ظهر ذلك من قبل الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر حين أعلن « إبراهيم بك الكبير » استقلالها ، كما ظهر بعد الحملة

الفرنسية حين عينت تركيا « محمد علي باشا » والياً على مصر فاستفاد من تمردھا ومن ثورتھا على الدولة ومن قوتھا الذاتية قوة قام بها في وجه تركيا ، واندفع بها إلى غزوها جاعلاً الآستانة هدفه ، قاصداً وضع يده على مقر الخلافة ليقم بها خليفة للمسلمين ، أو ليرد الخلافة إلى القاهرة ويقوم هو خليفة فيها مكان الخليفة الذي انتزعه الأتراك منها . ولشد ما عظفت أوربا على هذا العصيان الذي قام به والى مصر في وجه متبوعه خليفة المسلمين وما شجعتة . ومع أنها وقفت دون « محمد علي » وبلوغه غايته فإنھا قد أبدت من الحرص على تأييده بمنح مصر استقلالها الذاتي تحت إمرته وإمرة أسرته من بعده ويجعل فلسطين وسوريا تحت حكمه ما جعله يقدر هذا العطف ويفتح للأجانب في مصر باباً كان من قبل موصداً . ولم يكف « محمد علي » بفتح هذا الباب ثمناً لعطف فرنسا ممثلة أوربا يومئذ عليه ، بل أقبل هو على الأجانب واتخذ له منهم مستشارين وأنصاراً وجعل منهم قواداً لجيشه ، ومهد بذلك لتغزو الحياة الأوربية مضر غزواً سريعاً . وقد ظهرت نتائج هذا الغزو بعد زمن قصير حين عقد « دلسبس » مع « سعيد باشا » اتفاقية قناة السويس ، وحين نادى « إسماعيل باشا » بأن مصر لم تعد جزءاً من أفريقيا بل أصبحت قسماً من أوربا ، وحين توالى الحوادث بعد ذلك سراعاً لتمهد الطريق لإنجلترا كي تضع يدها على مصر .

كان من أثر هذا التطور في حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الأوربية تنسج على مثالها أن بدأت البعثات التعليمية الأوربية تفد إلى الشرق وتستقر به . وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغزو الصحيح ، وكان ذلك تقدير أوربا لها . فما دام الشرقيون يقبلون على الحياة الغربية

فنبهني العرب لهم أسباب محاسنها ولجعل التعليم وسيلته إلى ذلك . لكن أمر هذه البعثات يستلفت النظر ، فقد رأينا أوروبا تتدرج منذ البعث في القرن الخامس عشر إلى حرية الفكر وإلى تحطيم القيود التي غللت بها الكنيسة هذه الحرية . وإلى إقامة نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدين . مع ذلك كانت هذه البعثات التي جاءت إلى الشرق بعثات دينية كلها . ولقد يخال الإنسان بادئ الرأي أن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشرق من رجال الدين المسيحي على مختلف مذاهبهم ونحلهم إنما وفدوا إليه لتضييق حكوماتهم نطاق التعليم الديني في بلادهم واعتبارها أدوات جمود وتأخر . لكن هذه البعثات الدينية لقيت منذ اللحظة الأولى حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانب الذين جاءوا إلى الشرق . وكان المتبادر إلى الظن ألا تعطف حكومات أوروبا كل هذا العطف على جماعة تعتبرهم سبباً من أسباب تأخر أوطانهم مادامت تريد أن ترفع في ربوع العالم كه لواء حضارتها الجديدة . لكن الأمر كان لا يزال على النقيض من هذا المتبادر إلى الظن . ومتتبع تقارير ممثلي الدول الأوروبية في الشرق منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الإنسان معها في اعتبار البعثات التعليمية الدينية غزوة منظمة وجهتها أوروبا إلى الشرق لغايات سياسية .

كيف كانت هذه البعثات غزواً سياسياً منظماً وجهته أوروبا للشرق ؟ رأيت أن تركيا ، باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية الحائلة بامتدادها حول البحر الأبيض المتوسط دون غزو أوروبا لأفريقيا وآسيا ، كانت موضع نظر خاص من جانب دول أوروبا . فتنافسها بحكم القومية جعلها تنسابق إلى أن تكتل سلامة

الأراضي العثمانية وحرصها على اختراق هذا النطاق وعلى وضع يدها عليه جعلها تعمل لتشجيع العوامل التي تضعف هذه الدولة العثمانية ؛ فهي قد صدت روسيا بعد أن تراجعت تركيا أمامها ، وهي قد أعادت « محمد علي » إلى مصر بعد أن كان على مقربة من القسطنطينية ، وهي قد شجعت اليونان وشجعت الدول البلقانية على الانتفاض على تركيا . لكن تركيا إذا تركت وشأنها بعد هذه الضربات التي أصابتها والتي صدمتها أوروبا عنها ضماناً لسلامتها فقد تستفيد من هذا الدرس القاسي وقد تراجع النظر في أمرها . فلتختر أوروبا الجهات التي يكثر فيها المسيحيون من بلاد آل عثمان وتوجه إليها غزوتها التعليمية بقوة أكبر مما وجهت لسائر بلاد الدولة ، واختارت أوروبا لبنان لهذا الغرض وبعثت إليه البعث وأنشأت فيه المدارس منذ سنة ١٧٥٠ . وكان أهل لبنان إلى يومئذ لا يعملون الخلاف في الدين سبباً لاختلاف سياسي ، لكن هذه البعثات الدينية الأوروبية عملت بتأييد دول الغرب المختلفة لتعليم المسيحيين من أهل لبنان ولإقناعهم بأن ما ينزل بهم ليس مرجعه إلى نظام الحكم في الإمبراطورية العثمانية كلها ، ولكن مرجعه إلى أنهم مسيحيون ، وأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية ؟ وبهذه التعاليم تهيأت نفوس أهل لبنان للانتفاض على الحكومة المركزية .

قد يكون رجال هذه البعثات مخلصين لرأيهم فيما علموا أهل لبنان ، ولكنهم كانوا أدوات السياسة الغربية ، سياسة الاستعمار المادي الذي لا يعنى بالعقيدة ولا بالدين إلا بمقدار ما يصل به إلى أغراضه . وقد انتقض لبنان بالفعل في سنة ١٨٦٠ وتدخلت الدول الأوروبية لتأييد انتفاضه وكفلت له الحكم الذاتي الذي كفلت لمحمد علي في مصر قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وبذلك أقامت من لبنان الجبل الحصين نوءاً في جنب

السور الإسلامي ، كما أقامت من مصر قبل ذلك تنوعاً آخر أشد من لبنان خطراً بسبب هذا الموقع الجغرافي الممتاز الذي يجعل مصر موضع الصلة بين البحرين الأبيض والأحمر موضع الصلة لذلك بين قارات العالم الخمس جميعاً .

كان من نتيجة هذا الغزو التعليمي وما أذاع في الشرق من أدب جديد وتفكير جديد أن زاد أهل الشرق شعوراً بما جنى الجمود عليهم وراقباً على هذه الحضارة المتقدمة . ولكن كيف يكون هذا الإقبال ؟ أليكون بترع القديم كله وارتداء ثوب الحضارة الجديدة ؟ لقد نزع بعض الأمم فيها بعد الحرب الكبرى الأخيرة هذا المترع ، كما فعلت تركيا وكما حاولت أفغانستان أن تفعل . . لكن هذا المترع لم يكن ميسوراً قبل الحرب حينما كانت شعوب الشرق ما تزال تحسب نفسها قديرة على استعادة مجد كان لها . لذلك بدأ أهل الشرق يفكرون في أسباب تغلب الحضارة الجديدة عليهم ، وفي وسائل الوقوف على أقدامهم إزاءها . وتفكير الضعيف في سبب ضعفه تفكير مطمئن بطبعه للاعتراف بما هو متورط فيه من الخطأ وما هو شر من الخطأ ، لذلك كان الأخذ بوسائل العمل لمجابهة الحضارة الغازية أسرع من التفكير في التغلب على أسباب الضعف . وكان هذا العمل لمجابهة الحضارة الغازية سطحياً ، هو ما يتبادر إلى ذهن الإنسان العادي في أى ظرف من الظروف . فهذا العمل إنما هو محاكاة الغرب صاحب هذه الحضارة . ومحاكاة الغرب تكون باستعارة مظاهر حضارته ، وتكون بإرسال جماعة من أبناء الشرق للوقوف على أسرار هذه الحضارة .

وقد كان هذا تفكير مصر منذ عهد « محمد علي » ، وكان تفكيرها بعد ذلك . وهو قد كان كذلك تفكير بلاد غير مصر في الشرق . لكن النشاط في هذه الناحية بدأ نشاطاً حكومياً ، ثم قتر زمناً إلى أن أتاحت

ظروف خاصة للأفراد التفكير فيه .

أدهشت الحضارة الغربية أعضاء هذه البعثات فكل مظاهرها جديدة أمامهم ، والمظاهر المعنوية في ذلك كالمظاهر المادية سواء . وهذه وتلك كلها قوية ناشطة ، آخذ بعضها برقاب بعض ، مستندة كلها إلى هذه الحرية التي كسبت أوروبا في مختلف الميادين بعد نضال القرون . فالعلم والفن والأدب والفلسفة وسائر مظاهر التفكير جديدة كلها ، بالقياس إلى ما خلفوا وراءهم في بلادهم . والصناعة والتجارة ومعدات النقل وأسباب الملاحاة ضخمة هائلة لا يرى في الشرق منها إلا ما كان وارداً من الغرب . وهذه الحرية التي يستند ذلك كله إليها ، تنهم في الشرق بمنافاتها لقواعد الخلق ولتقتضيات الفضيلة . وليس يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن رجال الدين في الغرب يحدثون هؤلاء الذين أوفدهم الشرق حديثاً غير الذي يحدثهم رجال دينهم ؛ يحدثونهم حديثاً أساسه العقل واحترام الحرية ، ويحدثونهم عن الخلق وعن الفضيلة وعن المحبة الإنسانية حديثاً قلما تخالطه الخرافة . فمن حق هؤلاء الشرقيين أن يندهشوا ، ومن حقهم أن يشعروا بسبق الغرب إياهم . وبأن حضارة الغرب إنما هي الحضارة الواجب أن تنتقل إلى الشرق إذا أريد بالشرق أن يخرج من جموده وأن يفيق من سباته . فما هي الوسيلة ، بل ما هي الوسائل لنقل هذه الحضارة ؟

يستغرق التفكير في هذه الوسائل السنين الطوال . لكن هذه النتيجة التي وصل إليها من تفقوا بثقافة الغرب من أبناء الشرق ، جعلت نظرتهم إلى بلادهم نظرة إشفاق لا تخلو من ازدراء ما فيها من العناصر الحيوية التي كان يجب أن تدفع بها إلى الأمام فإذا هي تردّها القهقري خطوات فسيحة . ومن شأن هذه النظرة أن تضعف في النفوس القوة المعنوية أضعاف .

ما ضعفت البعثات الدينية الأجنبية من هذه القوة . ثم زاد في ضعفها عامل آخر جدير بالاعتبار هو الآخر ، وهو من نوع هذين العاملين من حيث إنه عامل تعليمي مرجعه إلى تدريس تاريخ الشرق لأهل الشرق .

فقد جعل أهل الغرب مهمهم تصوير تاريخ الشرق تصويراً يجعل الناشئين من أهله يعتبرون بلادهم بطبيعة تاريخها غير أهل لما بلغت أوربا ، فواجب عليها أن تدعن لقيام أوربا بتعليمها وإعدادها للحرية وللحكم . فمصر مثلاً لم تحكم نفسها - في رأى الأوربيين الاستعماريين - منذ انتهى عهد الفراعنة . بل خضعت لحكم اليونان والرومان والعرب والترك عصوراً وقروناً . وشعب هذه وراثته في الحكم لا يمكن أن يعرف الحرية ، أو يعرف كيف يتولى بنفسه الحكم . ومع فساد هذه النظرية من الجهة العلمية التزيهية ، فقد ظلت تروج وتروج ، ويخلع عليها الأدب والفن من مختلف الصور ما نزل بها إلى نفوس الشعب فأضعفها . وتركيا - مع الاعتراف لها بتفوق ملكاتها الحربية - هي الرجل المشرف على الموت الذى ليس من موته بد . وبلاد العرب المندمجة في الإمبراطورية العثمانية قد خضعت لير العرب منذ الفتح الإسلامى ، ثم عصفت بها الحكم التركى ففضى في نفوس أهلها على كل ملكات الحرية والحكم .

أما الجزائر وأما تونس فقد وقعت في حكم فرنسا . وقعت الأولى في أوائل القرن التاسع عشر ، بينما ظلت الثانية حتى حوّل بسمرك أنظار فرنسا إليها بعد حرب السبعين ليشغلها بها عن هزيمتها في تلك الحرب من ناحية ، وليشغلها عن مجهود الجبار في إقامة الوحدة الجرمانية من الناحية الأخرى ، وما نفتت أوربا من سموم الانحلال في مصر وفي الشرق الأدنى نفتت فرنسا

في الجزائر وفي تونس . وإذن فليؤمن الشرق كله بأنه في حاجة إلى حضارة الغرب إذا أراد أن يحيا وأن يعرف للحرية طعماً ، وليؤمن تبعاً لذلك بأنه في حاجة إلى دول الغرب لمعاونته على الحياة وعلى الحرية .

وتقدم الغرب لمعاونة الشرق ، ولكن أية معونة ؟ من يريد أن يستغل استغلالاً اقتصادياً فاحشاً تحت ظاهر من نشر لواء حضارته . فحضارة العلم قد عثت في الشرق بتضييق نطاق العلم غاية التضييق . عكفت البعثات التبشيرية في البلاد التي ظلت مستقلة على بث ذلك التاريخ المشوه للشرق في نفوس أبنائه ، وعلى إشراك تلاميذها العقيدة بأن الشرق يحكم دينه الغالب ، وبحكم تاريخه ، لا سبيل إلى تقدمه ما لم يتزع عنه ثوب هذا الدين ، وما لم يفصل بينه وبين ماضيه بسياج متين . فأما في البلاد التي امتد نفوذ الغرب فيها ، فقد حصر التعليم في أضيق دائرة ممكنة ، وجعل أداة لتخريج موظفين يدينون بالطاعة . والإذعان للغرب صاحب السبق والتقدم أو صاحب النفوذ السياسي في البلاد . وقد أشار لورد «كرومر» في تقاريره عن التعليم بمصر إلى ذلك غير مرة بعبارات صريحة . بل أضاف إلى ذلك أن لغة أهل الشرق (العربية) غير قادرة على أن تحمل رسالة العلم ، فلا بد لمن يريد أن يدرك هذه الرسالة من أن يصل إليها عن طريق لغة أوربية . وهذه كلها لا ريب عقبات ، عمل الغرب لوضعها في طريق الشرق حتى لا تسرع إليه رسالة العلم الصحيح تدفعه إلى حمى الحرية والحق ، وتجعله يقف مع الغرب جنباً لجنب بدل أن يدعنه له ويطأطئ رأسه أمامه .

وفيما كانت هذه العوامل كلها تضعف من إيمان الشرق بنفسه ، كانت صناعة الغرب تغزو الشرق غزواً ذريعاً ، وكانت سياسة الغرب

تقيم في وجه الشرق كل عقبة إذا أراد أن ينافس بصناعته صناعة الغرب . وكان الاستعمار الاقتصادي يتخذ من علم الغرب ومن أدبه ومن فلسفته وسيلة لإضاعة ما عند الشرق من ثقة بنفسه ، ولإقناعه بأنه أصبح إلى أجيال عالة على الغرب لاسيلاً له إلى الاستغناء عنه . وقد بلغ الغرب من ذلك أن أصبحت بلاد الشرق مقصورة على إنتاج الخامات التي تحتاج إليها الصناعة ، قاصرة عن أن تنتج في ميادين العلم والأدب والفن شيئاً يذكر . وإن أصبح كل ما في الشرق من مظاهر الحضارة مستعاراً من الغرب ، حتى لو أنك نزلت ما في الشرق من علمه وأدبه وفنه وصناعته وتجارته، إذن لرأيت الشرق أجرد عارياً إلا من خصب أراضيه ويزرع الفلاحين والعمال فيه .

هل أسلم الشرق نفسه لهذا القضاء في الغرب ؟ أم أنه حاول أن يقاوم ويأبى مقدار ؟

نقف في هذا الفصل عند الغزو الأوربي للشرق إلى ما قبل الحرب الكبرى التي شبت ناراها في الثاني من أغسطس سنة ١٩١٤ . إلى ذلك الحين كان غزو الغرب بلاد الشرق معتمداً على ما قدمنا بصفة عامة ، معتمداً إلى جانب ما قدمنا على القوة المادية والهبة العسكرية في البلاد التي غزاها الغرب . وقد كانت تتنازع الشرق إزاء ذلك كله نوازع مختلفة الموجات . كان الشرق كله تقيض نفسه أسى وحسرة على ما أصابه . لكن رد الفعل فيه كان يختلف باختلاف الطوائف والهيئات . فمن هذه من رأى كل مقاومة غير مجدية ، ومن آمن أكثر من ذلك بتعاليم الغرب بأن الشرق لم يبق أهلاً لحكم نفسه ، وأنه لو ترك شأنه لمزق أهله بعضهم بعضاً كل ممزق . ولقيت فيه آثار الاستبداد جميعاً من ظلم وقسوة وانتقام ورشوة وفساد خلق .

وأن ليس له لذلك إلا أن يدعى للغرب وأن يسلم له قياده حتى يعلمه الغرب حكم نفسه ، أو حتى تم المعجزة فيبعث الله من يقيم الشرق من الوهدة التي تردى فيها . وآخرون كانت تثور نفوسهم لما يسلب الغرب الشرق حريته فينادون بحرية الشعوب اعتماداً على حقها في الحرية واعتماداً على مبادئ الحق التي قررت الثورة الفرنسية . وهؤلاء كانوا يتخذون من ضرب مصالح الأمم الغربية بعضها ببعض وسيلة للغاية التي يصبون إليها من تحرير أوطانهم محتذين في ذلك حذو الدولة العثمانية في اعتمادها على تنافس الدول الأجنبية لضمان سلامتها ، كما كانوا يعتمدون على استنزاف حماسة الشعوب المظلومة ليشعروا المستعمرين بأن مصالحهم معرضة للخطر إذا هم ظلوا في سلبهم لحرية الأمم التي يظلمون . وآخرون غير هؤلاء وأولئك كانوا يعتقدون أن الإذعان والتسليم أمر يتنافى وطبائع الأمم . وأن الاعتماد على تضارب مصالح الدول الغربية اعتماد غير مشر . لأن هذه الأمم تتفق فيما بينها على حساب الأمم المظلومة . فتنازعها لن يكون من أثره إلا ازدياد هذه الأمم المظلومة عدداً . وأن استنزاف الشعور وحده غير كاف لطرد المستعمر من بلاد يجد فيها مغنماً مادياً ، أو يجد فيها نقطة ارتكاز لسياسته الاستعمارية أو العسكرية . فإذا أريد أن تقاوم أمم الشرق استعمار الغرب فلا مفر من تقوية الروح المعنوية في أمم الشرق تقوية أساسية ثابتة تجعل أصحاب هذا الروح يابون الضيم ويفضلون عليه الاستشهاد ، وأن تقوية الروح المعنوية على هذه الصورة لا يكون إلا إذا شعرت هذه الأمم بأن لديها من مقومات الحياة ما لدى أمم الغرب من علم وفن وأدب وصناعة ، وأن الاعتماد على الحكومات في هذا ضرب من السخف لأن الحكومات إما استبدادية كما كانت في تركيا وفي فارس وفي الأفغان فهي تخاف العلم والفن والأدب

والصناعة كما يخافها المستعمر سواء بسواء ، وإما خاضعة لحكم المستعمر فلا رجاء في مقاومتها سياسته ، وفي إقامتها العلم والفن والأدب والصناعة مما يدك أركان هذه السياسة . فلا بد من أن تقوم حركة أهلية منظمة تعمل لتقوى الروح المعنوية وإن احتاجت في ذلك إلى ما تحتاج إليه من جهود شاقة وعمل متصل على السنين .

كانت هذه النزعات الثلاث قائمة بنفوس البلاد الشرقية إلى ما قبل الحرب . ومع أنها على ما ترى نزعات لا يمكن أن تعترض بعضها بعضاً ، بل يمكن على العكس أن تتجاوز وتعمل متضامنة - والنزعتان الأخيرتان منها بنوع خاص - فإن السياسة الغربية الواسعة الحيلة قد تمكنت من أن تضربها بعضها ببعض ، وأن تقيم أصحابها وجههم في وجه بعض ، وأن تجعلهم يترامون بينهم شعاء أقلها المروق من الوطنية أو الخرف فيها . وقد تعجب إذ ترى أن ما حسبه تركيا ضماناً لسلامتها حين ضربت الدول بعضها ببعض قد أدى إلى استفحال شأن الامتيازات الأجنبية فيها وفي البلاد الشرقية كافة - قد انقلبت نتيجة حين ضربت سياسة الاستعمار طوائف الأمم المغلوبة بعضها ببعض فزادتها بذلك ضعفاً ، ولكن لا عجب . فالبذرتان المشابهتان يختلف ثمرهما إذا زرعت إحداهما في أرض قوية والأخرى في أرض سبخة . وفرق بين مياسة تقوم على الضعف وتستمد وجودها من تنازع الدول على السلطان الذي يقوم بها وعلى بلادها ، وبين سياسة تعضدها القوة المادية والهبة العسكرية وتستند إلى ما كسبت أوربا خلال القرون التي أعقبت عصر البعث من علم وفن وسياسة .

هذه الصورة التي رسمنا من صلات الغرب والشرق في عصر الاستعمار - أي منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى حين نشوب الحرب الكبرى -

تدلنا على أن أوروبا قد غزت الشرق غزو استعمار ، لا غزو حضارة .
 قد غزته غزواً مادياً لم تقصد منه إلى أن تظله بلواء حضارتها العلمية .
 بل غزواً اقتصادياً كان كل غرضها منه استغلاله استغلالاً اقتصادياً .
 قد يقال إن الغزو كان يرمى في كل العصور إلى الغلب السياسي وإلى
 الاستغلال الاقتصادي . وهذا صحيح في مجموعه ، وهو صحيح في الغزو
 الإسلامي صحته في الغزو المسيحي . لكن الغزو الإسلامي والغزو المسيحي
 كانا إلى جانب الغلب السياسي والاستغلال الاقتصادي بقيان حيث أقاما
 روحاً معنوياً ونظاماً روحياً لم يقصد به يوماً إلى إضعاف ثقة الأمة ، التي
 نزل هذا الغزو فيها ، بنفسها ، ولا هو عمد إلى تشويه تاريخها وحبس
 العلم عن أهلها وعدم السماح لهم إلا بالترثر منه . ويشهد التاريخ أن الحضارة
 الإسلامية أظلت بلوائها كل بقاع الأرض التي انتشر الإسلام فيها . وكذلك
 الشأن مع الحضارة المسيحية ، لكننا لا نحسب أهل العرب أنفسهم يرون
 شرفاً لحضارة الغرب أن يقولوا إنها أظلت البلاد التي حكم الغرب بلوائها .
 فإتعا نشر الغرب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح
 المعنوي في الشعوب التي نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس
 في تلك الشعوب ، كما نشرت بينها روحاً مادية قتلاً للإيمان بكل المعاني
 السامية أو المثل العليا توطيداً للاستعمار وآثاره . وهذا الروح المادي
 هو ما يعمل المستعمرون لنشره أي ذهبوا ، لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التي
 تربط الحاكم بالمحكوم في كل أمة ليس بين الحاكم والمحكوم فيها صلات
 لغة أو جنس أو دين . أفنجحت هذه السياسة في ربط الغرب بالشرق
 حين أعلنت الحرب الكبرى ؟ وهل نجحت من بعد ذلك في توطيد السلام
 في ربوع العالم ؟ فلنتظر قليلاً ثم نرى .